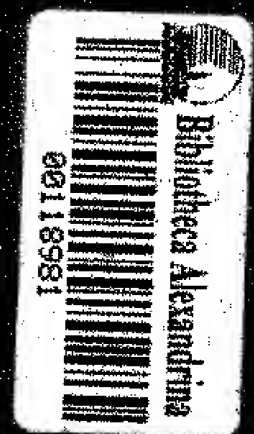


أبو عبد الله الشيعي

الخروج على



أبو عبد الله الشيعي

مؤسّس الدولة الفاطمية

تأليف

دكتور علي حسني الخريوطي

المطبعة الفنية الحديثة

٢٠ شارع المصطفى بالزيتون - ٨٦٢٨٧١

أبو عبد الله الشيعي

مؤسس الدولة الفاطمية

تأليف

دكتور علي حسيني الخريوطي

١٩٧٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

(أبو عبد الله الشيعي) هو بطل من أبطال التاريخ . وقد جمع من الصفات والقدرات ، الشخصية والعامة ، ما جعله في مقدمة رجالات العالم . فهو رجل عبقرى ، اتصف بالذكاء والفطنة ، وبالتدين والزهد ، وبالتقوى والورع ، وباللباقة والكياسة . اعتنق تعاليم الشيعة ، وتشبع بحب آل البيت النبوى ، وأعلن ولاءه للأئمة العلويين الاسماعيليين ، ورأى أحقية الفاطميين فى تولي الخلافة ، فعاش حياته كلها من أجل تحقيق آرائه وأفكاره . وكافح وناضل سنوات طويلة حتى خرج بها إلى النور ، وجعلها حقيقة تاريخية واقعة ، فأصبح مؤسساً للدولة الفاطمية ، التي كانت من أعظم الدول الإسلامية حضارة وأمجادا .

شهد التاريخ الإسلامى كثيراً من الثورات العلوية ، طوال العصرين الأموى والعباسى ، من أجل قيام خلافة علوية فاطمية . وجاهد أئمة علويون ، وملايين من شيعتهم ، فى سبيل تحقيق هذا الهدف ، وأزهقت أرواح ، وسالت دماء ، وامتلات السجون بالشيعة ، وتعددت الفرق الشيعية ، ولجأت إلى المقاومة العلنية الإيجابية حيناً ، وإلى الدعوة السرية حيناً أخرى . ولكن هذه المحاولات والجهود ، باءت بالاختفاق ، ولم ينجح الأئمة العلويون ، بعد الإمام على بن أبى طالب ، فى الوصول إلى الخلافة ، إذ استأثر بها خلفاء أمويون وعباسيون .

ثم استطاع رجل واحد ، بجهود فردية ، معتمداً على ذكائه وعبقريته ، وعلى لسانه وفطنته ، أن يقيم صرح الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب . وهذا

الرجل ، هو أبو عبد الله الشيعي ، الذي أصبح جديراً بأن يصفه المؤرخ المقرئ بأنة « من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون ، أحد رجالات العالم القائمين بنقض الدول وإقامة الممالك العظيمة من غير مال ولا رجال » .

ومما يؤسف له أننا لا نجد في مكتبتنا العربية كتاباً ينفرد بدراسة تاريخ أبي عبد الله الشيعي على أسس علمية منهجية ، ولا نجد سيرته إلا في ثنايا دراسة المؤرخين والباحثين لتاريخ الدولة الفاطمية ، رغم أن قيام هذه الدولة العظمى كان من ثمار جهوده . ولذا رأينا أن نعطي أبا عبد الله حقه في دراسة تاريخه المجيد .

ومما شجعنا أيضاً على القيام بهذه الدراسة ، أن حق أبي عبد الله قد ضاع بين أهل السنة ، وبين الشيعة . فأهل السنة ساخطون عليه لأنه شيعي مخلص ، كانت جهوده هي أساس قيام دولة علوية فاطمية شيعية في المغرب ، ما لبثت أن انتقلت إلى مصر ، وامتدت نفوذها إلى الشام وإلى أرجاء كثيرة في الجزيرة العربية ، كما أن كثيراً من أهل السنة يشكون في نسب الخلفاء الفاطميين إلى السيدة فاطمة بنت الرسول ويسمونهم العبيديين ، نسبة إلى عبيد الله المهدي أول الخلفاء ، ويرى أهل السنة أن أبا عبد الله الشيعي هو الذي مهد - في رأيهم للعبيديين سلالة الداعية ميمون القداح ، الفرصة للوصول إلى الخلافة .

أما الشيعة ، فكثير منهم غاضبون أيضاً على أبي عبد الله الشيعي ، إذ يرون أنه تنكروا للخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي ، وأنه رفع لواء العصيان ضده ، فأصبح بذلك خارجاً عن الطاعة ، منبوذاً من الفاطميين وشيعتهم في كل زمان ومكان .

وهكذا كانت كتابات المؤرخين السنيين والشيعيين عن أبي عبد الله

الشيعة غير منصفة لهذا البطل العظيم. ولذا أصبح أبو عبد الله من الشخصيات الكبيرة التي ظلت دهرًا « تبحث عن مؤلف ». وقد رأينا أن نعطيه حقه بميزان دقيق ، وبالعادل والقسطاس . فالحياد التاريخي هو دائماً أساس كل بحث علمي منهجي .

ولذا أقول أني لم أكن في هذا البحث التاريخي سنيا ، أو شيعيا ، بل كنت مؤرخا محايدا ، أعطى ما لقيصر لقيصر ، ومالله لله . والله عز وجل موفقنا في إبراز أمجاد أبطال تاريخنا الإسلامي ، وهو ولي التوفيق ؟

دكتور علي مهدي الخربوطلي

تمهيد

عرف ابن خلدون^(١) الشيعة فقال : « اعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والأتباع ، يطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع عليّ وبنيه رضي الله عنهم » .

وفصل الشهرستاني^(٢) تعريف الشيعة فقال : « الشيعة هم الذين شايعوا علياً رضي الله عنه على الخصوص ، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية ، إماماً جلياً ، وإماماً خفياً ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده ، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية من عنده » .

ووضعت جماعة الشيعة أساساً للخلافة أي الإمامة كما يسمونها فقالت : « ليست الإمامة قضية مصلحة تناط باختيار العامة ، وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هي قضية أصولية ، وهي ركن الدين ، لا يجوز للرسول عليهم السلام إغفاله وإهماله ، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله » . ولذا ترى الشيعة أن الإمامة أساسها « التعيين والتخصيص » ، وترى الشيعة أيضاً « عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر^(٣) » .

وبعد مصرع علي بن أبي طالب ظهرت جماعة الشيعة السيئة ، وهم من غلاة الشيعة ، فنادى عبد الله بن سبأ بالرجعة ، فعلى قد صعد إلى السماء وسينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه^(٤) .

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٨ .

(٢) الملل والنحل ، ص ١٠٦ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص ١٤٣ .

تطور حزب الشيعة تطوراً عظيماً بعد حرب صفين ومقتل علي^(١). وصيغت مبادئ الشيعة السياسية بصيغة دينية^(٢). وبعد مقتل علي^(٣) تكون حزب ديموقراطي تألف من العناصر العربية وانضم إليهم عدد كبير من الموالي. ثم كان لمقتل الحسين نتائج هامة في تاريخ الشيعة^(٤) حتى أنه يمكن أن نقول إن الحركة الشيعية بدأ ظهورها في اليوم العاشر من الحرم، وهو يوم استشهاد الحسين^(٥). فقد اتجهت الشيعة بعد استشاده إتجاهاً دينياً، بل غلب الجانب الديني في التشيع الجانب السياسي^(٦).

بدأ التشيع فكرة بسيطة واضحة محدودة المبادئ. فكان كل « من وافق الشيعة في أن علياً رضي الله عنه أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحقهم بالإمامة وولده من بعده فهو شيعي، وإن خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف عاينه المسلمون، فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعياً »^(٧). وتطورت آراء وتعاليم الشيعة في العصرين الأموي والعباسي نتيجة تغير الظروف السياسية وظهور الفرق الدينية والسياسية الأخرى^(٨).

في العصر الأموي، تفرعت الشيعة إلى عدة فرق، أشهرها : السبئية، والإمامية، والكيسانية والزيدية^(٩). وقد اختلفت هذه الفرق في التفاصيل ولكنها

(١) أنظر كتابنا (تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي) ص ١٠٩.

(٢) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٧٥.

(٣) العراق في ظل الحكم الأموي، ص ١٢٢ (من تأليفنا).

(٤) حق : تاريخ العرب، ص ٢٥٣.

(٥) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة، ص ١٧٦.

(٦) ابن حزم : الفصل في الملل والنحل، ص ١١٣.

(٧) أنظر كتابنا (العراق في ظل الحكم الأموي) ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٨) الشهرستاني : الملل والنحل، ص ٢٣٤.

اتفقت جميعها في أن علياً أحق المسلمين بالإمامة ، والقيام بالأمر في أمته^(١) .

أما السبئية فهم غلاة الشيعة ، فقد غالوا في خلع الصفات على الإمام عليّ ابن أبي طالب^(٢) . أما الشيعة الإمامية ، فقد اتفقت على أن الرسول قد نص على إمامة عليّ « باسمه وعينه ونسبه ونصبه للناس إماماً واستخلفه وأظهر الأمر في ذلك إلى غيره ، وأن الأمة ضلت وكفرت بصرفها الأمر إلى غيره^(٣) » . والشيعة الإمامية تقول بعودة « إمام منتظر » ولكنها تختلف فيمن هو ذلك الإمام المنتظر . أما الكيسانية فقد ظهرت على يد المختار الثقفي ودعت لإمامة محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية^(٤) .

وفي أواخر العصر الأموي ، ظهرت عدة فرق للشيعة نتيجة تطور مبادئ الشيعة السياسية والدينية . فقد اتجهت الشيعة إلى الدعوة السرية أو ما يسمونه « التقية والكتمان » ، نتيجة اضطهاد الخلفاء والولاة الأمويين لجماعات الشيعة . ويبيح مبدأ التقية الاختفاء وكتمان العقائد ، إذ تعرضت الشيعة للخطر أو الضرر . وبذلك أصبحت الشيعة أقدر الفسوق الإسلامية على الدعوة السرية .

ونتيجة عن هذا التطور في آراء وتعاليم الشيعة ظهور فرقتين في أواخر العصر الأموي ، وهما فرقتا الزيدية والهاشمية . أما الزيدية فقد نادى بآراء معتدلة^(٥) . فيرى الإمام زيد بن علي جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ،

(١) ابن نضوان : الحور العين ، ص ١٥٣ .

(٢) ابن مبرد ربه : المعقد الفريد ، ص ٢٠٤ .

(٣) ابن نضوان : الحور العين ، ص ١٣٥ .

(٤) أنظر كتابنا (المختار الثقفي) في سلسلة أعلام العرب تجد كثيراً من التفاصيل .

(٥) ابن مبرد ربه : المعقد الفريد ، ص ٢٦٦ .

والإمامة بعد زيد هي « في ولد فاطمة كائناً من كان بعد أن يكون عنده شروط الإمامة^(١) ». وتري الزيدية أن الإمامة مسألة عملية لا سلبية ، فيجب أن يقود الإمام شيعته في الكفاح دون اختفاء أو كتمان^(٢) .

أما فرقة الهاشمية ، فقد تفرعت عن الكيسانية ، وأجمعت على أن محمد بن الحنفية قد أوصى إلى ابنه عبد الله بن محمد المعروف بأبي هاشم بالإمامة من بعده^(٣) . وقد نظم أبو هاشم الدعوة ، وجاهد في ضم صفوف الشيعة ، سواء أكانوا غلاة أم معتدلين مادام يجمعهم كراهية الأمويين . وانقسمت الفرقة الهاشمية بعد أبي هاشم إلى عدة فرق ، أشهرها فرقة المنتظرين التي ترى أن أبا هاشم أوصى إلى ابن أخيه الحسن بن علي بن محمد بن الحنفية ، وأن الحسن أوصى إلى ابنه علي ، ولكن هذا الأخير مات دون أن يعقب ولداً ، فهم ينتظرون رجعة ابن الحنفية . والفرقة الثانية العباسية ، وتري أن الإمام بعد أبي هاشم هو محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الذي يذهب إلى أن أبا هاشم قد تنازل له عن الإمامة^(٤) .

انفرد العباسيون بالخلافة سنة ١٣٢ هـ ، وفامت ضدهم ثورات علوية متتالية ، أشهرها ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن ، المعروف بالنفس الزكية ، في عهد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور ، وثورة الحسين بن علي في عهد الخليفة الرابع المهدي ، وثورتي يحيى وإدريس ابني عبد الله في عهد الخليفة الخامس هارون الرشيد . وقد تولى كل هذه الثورات الشيعة الزيدية .

(١) ابن النديم : الفهرست ، ج ٢ ص ٤٥٦ .

(٢) أنظر كتابنا (تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي) ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

(٣) ابن نشوان : الحور العين ، ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(٤) ابن نشوان : الحور العين ، ص ١٥٩ — ١٦٠ .

أما الشيعة الإمامية ، فقد تولى زعامتها في مطلع العصر العباسي ، الإمام جعفر الصادق ، وهو ابن محمد الباقر ، وحفيد الإمام زين العابدين . وقد فضل هذان الإمامان الأخيران الركون إلى الهدوء والاشتغال بالعلم والدين . وأصبح جعفر الصادق الإمام السادس من أئمة الشيعة الاسماعيلية (٨٣ — ١٤٨ هـ) . وكان يرى أن الخلافة من حق الأئمة أحفاد الحسين بن علي ، بينما قام بالثورات العلوية أئمة من أحفاد الحسن بن علي . وقد اشتهر الصادق بالتقوى والزم والزهدي^(١) .

وبعد وفاة الإمام جعفر الصادق (سنة ١٤٨ هـ) ، انقسمت الشيعة الإمامية إلى طائفتين : طائفة الإمامية الموسوية التي قالت بإمامة موسى الكاظم بن الإمام الصادق ، وهو عندهم الإمام السابع^(٢) ، وقد نقلت هذه الطائفة الإمامة بعد موسى إلى ابنه الإمام علي الرضا ، ثم إلى الإمام محمد الجواد ، ثم الإمام علي الهادي ، ثم إلى الإمام الحسن العسكري ، ثم إلى الإمام محمد المنتظر ، فيصبح الإمام الثاني عشر ، ولذا يطلق على هذه الطائفة إسم (الشيعة الإمامية الاثنا عشرية) ، وقد دخل الإمام محمد سرديا ، ثم اخفني (سنة ٣٦٠ هـ) ولذا فشييعته تنتظر عودته^(٣)

أما الطائفة الثانية ، فهي طائفة الإمامية الاسماعيلية ، التي قالت بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو أكبر أولاده . وكان الصادق قد خلع اسماعيل من الإمامة ، ونصب ابنه موسى ، نتيجة أمور نسبت لاسماعيل ،

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) الفخرى ، ١٧٨ .

(٣) أنظر كتابه فرق الشيعة للنووي ، ص ٥٧ وما بعدها .

لا مجال لمناقشتها هنا ، ولكن طائفة من الشيعة تمسكت بولائها لاسماعيل ولم تعترف بتحويل الإمامة إلى موسى .^(١)

توفي اسماعيل في حياة أبيه الصادق سنة ٤٥ هـ ، فانتقلت الإمامة منه إلى محمد ، فأصبح الإمام السابع ، وتطلق على هذه الطائفة إسم (الإمامية السبعية) وبهذا الإمام يبدأ دور الأئمة المستورين ، وقد استتر الأئمة ، وتولى دعائهم نشر الدعوة لهم . وكان ميمون القداح هو أشهر دعاة الإمام محمد ابن اسماعيل . وبعد وفاة هذا الامام انتقلت الامامة إلى ابنه عبدالله الرضى الذى استتر أيضاً واعتمد على كبير دعائه عبدالله بن ميمون القداح . وتبع العباسيون هذا الإمام ، فتنقل هو وإبنه أحمد في كثير من الأمصار ، ثم استقر في قرية (سلميه) في بلاد الشام ، التي أصبحت (دار هجرة) الشيعة لأئمة الاسماعيلية .^(٢)

ثم تولى الإمام أحمد بن عبدالله الرضى ، الذى اعتمد في الدعوة على عبدالله بن ميمون ، واتسعت دائرة الدعوة الاسماعيلية في أرجاء العالم الاسلامى . ثم خلفه ابنه الامام الحسين الذى وجه اهتمامه إلى نشر الدعوة الاسماعيلية في بلاد اليمن ، وقد تولاهما الداعيان الكبيران ابن حوشب وعلى ابن فضل منذ سنة ٣٦٨ هـ ، ومن اليمن امتدت الدعوة إلى كثير من الأقطار الاسلامية^(٣) . ثم رأى الإمام نشر الدعوة الاسماعيلية في بلاد المغرب ، فاختار داعية هو (أبو عبدالله) وبعثه إلى ابن حوشب باليمن لتدريبه على وسائل الدعوة (سنة ٤٧٨ هـ) .

(١) الشهرستانى . الملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٢٨ وما بعدها .

(٢) الزمان : افتتاح الدعوة ، ص ٣٣ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠ - ٤١ .

١ - فجر الحياة

اعتاد الباحثون في التاريخ أن يلاقوا صعوبات شديدة في دراسة فجر حياة أبطال التاريخ، الذين كانوا في فجر حياتهم مجرد أفراد في مجموعات كبيرة، لا يعرف الناس ما تخبئه الأقدار لهم من شهرة وأمجاد. فلا يزالوا في أول الطريق، ولم تسسلط عليهم بعد الأضواء الكاشفة التي تبرز عظمتهم وجهودهم. لذا فأخبار هؤلاء الأبطال في فجر حياتهم تكون عادة قلقة مضطربة.

ويظهر الاضطراب في تاريخ فجر حياة أبي عبد الله الشيعي، في كثير من الجوانب، أبرزها اختلاف المؤرخين القدامى حول اسمه. فنجده ابن خلدون في كتاب العبر^(١)، والمقرئزي في كتاب (الخطط)^(٢)، يذكران أن اسمه هو «الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا». بينما يرى المقرئزي في كتابه الآخر (اتعاظ الحنفا)^(٣) والناضي النعمان^(٤) في رسالته (افتتاح الدعوة) يسميانه (الحسين) مع الاحتفاظ بباقي النسب. ونحن نؤيد التسمية الثانية التي ورد ذكرها في كثير من المصادر التاريخية الأخرى^(٥)

واختلف المؤرخون الأقدمون أيضاً في الموطن الأول لأبي عبد الله، مثلما

(١) ابن خلدون : العبر، ج ٣ ص ٣٦٢ .

(٢) المقرئزي : الخطط، ج ١ ص ١٠ .

(٣) المقرئزي : اتعاظ الحنفا، ج ١ ص ٥١ .

(٤) النعمان : رسالة افتتاح الدعوة، ص ٥٩ (طبعة بيروت ١٩٦٠) .

(٥) ابن الأثير : الكامل، ج ٨ ص ٣، ابن خلدون : وفيات الأعيان، ج ١ ص ٤٤٣ -

ويأخذ أستاذنا الدكتور حسن إبراهيم (الدولة الفاطمية ص ٤٧) بالرواية التي تحمل اسم عبد الله هو (الحسن) .

اختلفوا في اسمه . فذكر القاضي النعمان ^(١) أن أصله من الكوفة ، بينما قال القرينى ^(٢) أنه من « رام هرمز » ^(٣) أما ابن الأثير ^(٤) وابن خلكان ^(٥) فيذكران أن أبا عبدالله من مدينة صنعاء باليمن . ويؤكد ابن عذارى ^(٦) هذه الحقيقة ويسمى أبا عبدالله بالصنعاني .

ويمضي المؤرخون في إختلافهم ، فقد اختلفوا في الوظائف التي وليها أبو عبدالله قبل قيامه بدوره الكبير في نشر الدعوة الفاطمية . فقيل أنه كان محتسباً ^(٧) بسوق الغزل في البصرة ، وقيل إنما المحتسب أخوه أبو العباس محمد ^(٨) .

أشتهر أبو عبدالله باسم (المعلم) لأنه « كان يعلم الناس مذهب الإمامية الباطنية » ^(٩) كما اشتهر أبو عبدالله أيضاً باسم (الصوفي) ، فقد كان يرتدى الخشن والمرقع من الثياب الصوفية ^(١٠) ويطلق القاضي النعمان ^(١١) على أبي عبدالله أيضاً اسم (صاحب البذر) ،

(١) افتتاح الدعوة ، ص ٥٩ .

(٢) اتعاظ الخنفاء ، ج ١ ص ٥٩ .

(٣) كتب باقوت الحوى ، اسم هذه المدينة متصلاً ، وذكر أنها تتألف من لفظين : (رام) وهي كلمة فارسية معناها (مقصود) أو (مراد) و (هرمز) وهو أحد الأكاسرة (أنظر حاشية اتعاظ الخنفاء ج ١ ص ٥٩) .

(٤) السكامل ، ج ٨ ص ٣١ .

(٥) وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٤٣ .

(٦) البيان ، ج ١ ص ١٣٤ .

(٧) خلاصة مهام المحتسب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أنظر الأحكام السلطانية للماوردي .

(٨) ابن خلدون : المعبر ، ج ٤ ص ٣١ ، القرينى : اتعاظ الخنفاء ، ج ١ ص ٥٩ .

(٩) اتعاظ الخنفاء ، ج ١ ص ٥٩ .

(١٠) هريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ، ص ٢٧ .

(١١) افتتاح الدعوة ، ص ٥٨ .

إذ نجح في بذر بذور الدعوة الفاطمية في أراضي بلاد المغرب ، وتعهدها بالرى والعناية ، حتى أتت ثمارها فقامت الدولة الفاطمية . وكان قد حرث هذه الأرض قبله أبو سيفان والحلواني ، الداعيان الشيعة .

وأبرز المؤرخون صفات أبي عبد الله وعلمه ودهائه ، فوصفه ابن الأثير^(١) بأنه كان على علم وفهم ودهاء ومكر . ووصفه المقرئ^(٢) بأنه « أحد رجالات العالم القامحين بنقض الدول وإقامته الممالك العظيمة من غير مال ولا رجال » . ووصفه ابن عذاري^(٣) بأنه كان ذا فهم وفصاحة وجدال ومعرفة . وقال ابن خلكان^(٤) عنه أنه كان من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون ، ورغم انتقاد القاضي النعمان^(٥) ، في آخر رسالته ، لموقف أبي عبد الله الشيعي من الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي ، فقد قال عنه : « وكان ذا علم وعقل ودين وورع وأمانة ونزاهة » .

(١) الكامل ، ٨٠ من ٣٩ .

(٢) انماظر الخلفاء ، ١٠ من ٦٨ .

(٣) البيان ، ١٠ من ١٢٤ .

(٤) وفيات الأعيان ، ٢٠ من ٣ .

(٥) افتتاح الدعوة ، ٥٩ .

٢ - الأستاذ والتلميذ في اليمن

عرفت بلاد اليمن الدعوة الشيعية منذ العصر العباسي الأول ، وأدرك الخليفة المأمون خطورتها على النفوذ العباسي ، فقد قامت في اليمن في عهده حركتان شيعيتان^(١) ، وكان الدافع لأهالي اليمن في المشاركة في الحركتين ، هو مظالم الحكم العباسي^(٢) . ولما كانت بلاد اليمن بعيدة عن مركز الخلافة العباسية في بغداد ، فقد رأى المأمون مواجهة انتشار التشيع في اليمن ، بإقامة حكم قوى ، فولى محمد بن إبراهيم الزيادي^(٣) . وقد انتهج المأمون منهج أبيه هارون الرشيد حين اختار إبراهيم بن الأغلب لحكم أفرنجية سنة ١٨٤ هـ ، وأطلق يديه في حكمها ، مما مهد لقيام دولة الأغالبة ، وكان هدف الرشيد مواجهة دولة الإدارة العلوية بالمغرب الأقصى^(٤) .

ووصل الزيادي إلى اليمن سنة ٢٠٣ هـ ، ونجح في تثبيت أقدامه ، وأخط مدينة (زبيد)^(٥) وجعلها مركز حكمه . ومد نفوذه إلى تهامة وحضرموت والشحر ولحج وديار كنده^(٦) ونجح الزيادي في إرساء قواعد دولة ، تحكم اليمن ، ويتوارث أبناؤه حكمها ، ويكون لها استقلال ذاتي ، مع إستمرار ولائها السياسي للدولة العباسية .

(١) تزعم الحركة الأولى لإبراهيم بن موسى سنة ٢٠٠ هـ ، وتزعم الحركة الثانية عبد الرحمن بن أحمد سنة ٢٠٧ هـ ، وما من سلالة علي بن أبي طالب (الطبري ٧٨ من ١٢٤ - ١٥٤) .

(٢) الطبري ٧٨ من ١٦٩ .

(٣) وهو من سلالة زياد بن أبي سفيان ، المعروف بابن أبيه ، والى معاوية بن أبي سفيان

(٤) أنظر أخبار هذه الدولة في كتاب (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى) ص ١

طبعة الدار البيضاء سنة ١٩٥٤ .

(٥) تقع مدينة زبيد في تهامة اليمن ، وكانت تسمى في الأصل وادي يحصب .

(٦) عمارة اليمن : تاريخ اليمن ، ص ٣٥ وما بعدها .

ولكن الدولة الزيادية ما لبثت أن تصدعت في عهد أبي الجيش اسحق بن إبراهيم الزيادى (٢٩١ - ٣٧١ هـ) ، فثار عليه أسعد بن إبراهيم بن محمد بن يعفر واستولى على صنعاء وحكمها (٢٨٥ - ٣٣٢ هـ) كما ثار عليه يحيى بن القاسم الرسى المعروف بالمهادى ، الذى كان يدعو للزيدية ، وأنشأ دولة بنى الرسى فى صعدة^(١) .

وهكذا أصبح فى اليمن ثلاث دول صغيرة: الدولة الزيادية فى زيد ، ودولة بنى يعفر فى صنعاء ، ودولة بنى الرسى فى صعدة . وكان هذا الانحلال هو السبب الذى جعل الدعوة الإسماعيلية الفاطمية الشيعية تجد طريقها إلى بلاد اليمن^(٢) .

وكانت الدعوة الإسماعيلية قد اجتازت دور الستر ، وتبلورت ونشطت واتسع نطاقها . وكان أئمة الإسماعيلية قد اتخذوا مدينة (سلمية) من أعمال حاة بيلاد الشام مركزا لنشر دعوتهم ، ومنها يوفدون دعايتهم إلى سائر الأمصار . وكان يطلق على هؤلاء الدعاة إسم (الحجج) أو (نواب الأئمة) ، وبرز من بينهم شخصيات كبيرة كان يطلق عليها إسم (بحار الدعوة) . وامتد نشاط هؤلاء الدعاة إلى بلاد اليمن والمغرب وفارس .

وكان ميمون القداح^(٣) هو أول من اتخذ الأئمة المستورون حجة أو نائباً لهم ، ثم خلفه ابنه عبد الله ، الذى اشتهر كآبيه بإسم القداح ، وقد نجح فى ضم صفوف الشيعة وتوحيد جهودهم ، والإنطلاق بالدعوة الإسماعيلية ، ورسم لها معالم الطريق ، ووفر لها التنظيمات الدقيقة^(٤) .

(١) المصنوع السابق، ص ٣٨ .

(٢) حسين بن فيض الهمداني اليمى : الصايحيون والحركة الفاطمية، ص ٢٨ .

(٣) كان يعتقل بالقداحة أى طب العيون .

(٤) المهرزى: القسطنط، ص ٢٤٧ وما بعدها .

قسم عبد الله العالم الإسلامي إلى مناطق رئيسية ، وجعل على كل منها واحدا من أبنائه أو أحد كبار دعائه المشهورين ، ويتركز فضل عبد الله في أنه نقل الدعوة من دور التأسيس والتكوين وخلق المبادئ النظرية إلى دور العمل^(١) .

وبعد وفاة عبد الله بن ميمون ، خلفه ابنه أحمد في قيادة الدعوة الإسماعيلية^(٢) وقد وجه اهتمامه إلى نشر الدعوة في بلاد اليمن ، فبعث إليهم أسنة ٢٦٨ هـ داعيتين من أكبر دعاة الإسماعيلية ، وهما علي بن الفضل اليمني وابن حوشب^(٣) .

أما ابن حوشب^(٤) ، فهو من أهالي الكوفة ، وقد استدعاه أحمد بن عبد الله القداح إليه « وألقى إليه مذهبه فقبله ، وسيره إلى اليمن ، وأمره بلزوم العبادة والزهد ، ودعا الناس إلى المهدي ، وأنه خارج في هذا الزمان^(٥) » .

وابن حوشب هو أستاذ أبي عبد الله الشيعي ، فيقول القاضي النعمان^(٦) أن أبا عبد الله قد أخذ الدعوة عن ابن حوشب « وبآدابه تأدب » . وتحدث النعمان عن ابن حوشب ، فقال أنه من أهل الكوفة « من أهل بيت علم

(١) حسن إبراهيم وطه شريف : عبيد الله المهدي ، ص ٦٢ .

(٢) المقرئ : انماخذ الخلفاء ، ص ٢٦ . ويلقب أحمد بن عبد الله بأبي العلم .

(٣) Kay, Yaman..., p. 225.

(٤) اختلاف المؤرخون في تفاصيل اسم ابن حوشب (ابن الأثير : السكامل ، ص ٨٠) وابن خلدون (العبر ، ص ٣٠٦) هذا كراي أن اسمه هو (رستم بن الحسين بن حوشب بن داود النجار) ، بينما يرى المقرئ أن الجد الأكبر هو (زاذان) . (انماخذ الخلفاء ، ص ٤٠) ، ويذكر النعمان (افتتاح الدعوة ص ٣٢) أن اسمه هو (أبو القاسم الحسن بن حوشب بن زاذان الكوفي) .

(٥) المقرئ : انماخذ الخلفاء ، ص ٤١ .

(٦) افتتاح الدعوة ص ٣٢

وتشيع » ، وقد درس القرآن الكريم والحديث والفقه ، وكان في أول أمره يعتنق تعاليم الاثنا عشرية أصحاب محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر الصادق ، وكان يعتقد أنه المهدي ، ثم أصبح من أبرز دعاة الإسماعيلية ، فصار يدعو للإمام محمد الحبيب ^(١) .

وهذا يدل على أن الاثنا عشرية كانوا دائماً منها تهملاً منه الدعوة الإسماعيلية ، حتى إن كبار دعايتها وزجالاتها كانوا دائماً من الاثنا عشرية ، وكان من اليسير حينئذ التفتل من مذهب سيعي إلى مذهب شيعي آخر ^(٢) .

اهتم الإسماعيليون بنشر دعوتهم في بلاد اليمن ، مدفوعين بعدة أسباب منها بعد اليمن عن مركز الخلافة العباسية في العراق ، وكان الخلفاء العباسيون قد ضيقوا الخناق على الشيعة جميعاً . كما أن الظروف السياسية في اليمن كانت تفسح المجال لانتشار الدعوة الإسماعيلية ، نتيجة ما أصاب هذه البلاد من انحلال سياسي ^(٣) ووجود فئات كثيرة من الشيعة ، وخاصة الشيعة الزيدية ، إلى جانب ميل كثير من أهالي اليمن إلى التشيع ، مما يوجد أسساً وطيدة يمكن بناء الدعوة الإسماعيلية عليها .

كما كان الإسماعيليون يعتقدون أن بلاد اليمن هي الأرض الصالحة لإقامة دعوتهم ، فيقولون : « البيت يمانى ، والركن يمانى ، والدين يمانى ، والكعبة يمانية ، ولن يقوم هذا الدين ويظهر أمره إلا من قبل اليمن » ^(٤) .

(١) المصدر السابق ص ٣٣

(٢) حسن إبراهيم وطه شرف الدين عبيد الله المهدي ص ٧١ .

(٣) المهديون البعري : البجليون والحركة الفاطمية ص ٢٩ .

(٤) الميرازي : سيرة المؤيد (تحقيق د . محمد كامل حسين ص ٢٦) .

(٥) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٣٨ ، الحمادي اليمن : كشف أسرار الباطنية وأخبار

القرامطة ص ٢٢ .

وصل ابن فضل اليماني وابن حوشب إلى بلاد اليمن في أول سنة ٢٦٨ هـ ،
فأقاما باليمن سنتين يدعوان مستترين . ثم ظهرت الدعوة جهرا باليمن سنة
٢٧٠ هـ (١)

وبدأ الداعيان نشاطاً عسكرياً من أجل السيطرة على بلاد اليمن ، بعد أن
نجحوا في العامين السابقين في جذب كثير من اليمنيين إلى التشيع ، بما
أظهرام من تدين وتقوى وزهد (٢) . كما أن ابن حوشب تزوج من ابنة أحد
ابن عبدالله بن ضليح أحد رجالات الشيعة في اليمن ، مما ساعد على استماله أنصاره
إلى ابن حوشب (٣) .

حمل ابن فضل لواء النشاط العسكري ، بينما كان معظم اهتمام ابن حوشب
موجهاً نحو الدعوة . ونجح ابن فضل في السيطرة على مناطق واسعة في بلاد
اليمن ، وتوج انتصاراته بفتح صنعاء (٤) . كما استولى على مدينة زبيد مركز
الدولة الزيدية (٥) . وسيطر على الحج ، ودانت له قبائل مذحج بالطاعة (٦)

ولكن ابن حوشب كان يرى تركيز الجهود في الدعوة ، والاقتصاد في
الفتوحات العسكرية ، ولذا بعث إلى ابن الفضل ، بعد فتحه صنعاء ، يشير
عليه بوقف الزحف العسكري . ولكن ابن فضل لم ينصت إلى نصيحة ابن

(١) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٤٤ .

(٢) الهمداني البعري : الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٣٣ .

(٣) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٤٥ . وكان ابن يعفر قد سجن أحمد بن عبد الله بن

ضليح ومات في سجنه ،

(٤) حمارة اليماني : تاريخ اليمن ص ١٦٨ وما بعدها .

(٥) المصدر السابق ص ١٧٠ .

(٦) الهمداني البعري : الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٣٦ .

حوشب ، مما جعل الداعيين يفترقان في طريقيهما . فقد أعلن ابن فضل العيصان على أئمة الإسماعيلية ، وهدد ابن حوشب بالقتال إن لم يدخل في طاعته ^(١) . وأراد ابن فضل تكوين دولة إسماعيلية مستقلة ، أسسوة بدولة القرامطة ^(٢) واشتبك الداعيان في معارك عنيفة ، وانتهى الخصاص بالصلح ^(٣) .

واستمر ابن حوشب على إخلاصه للإمام الإسماعيلي ، ومضى في جهوده من أجل الدعوة الإسماعيلية . فبنى حصناً بجبل لاعة ، قرب عدن ، وكان معظم سكان هذه المنطقة من الشيعة ويعرفون ببني موسى ، وقد أمرهم ابن حوشب « بالاستكثار من الحيل والسلاح » ^(٤) .

ومن عدن ، بعث ابن حوشب ابن أخيه الهيثم إلى السند لنشر الدعوة الإسماعيلية ^(٥) . وانتقلت أخبار جهود ابن حوشب إلى الشيعة في بلاد العراق فهرعوا إلى بلاد اليمن ، هرباً من وجه العباسيين . ولا غرو أن اكتسب ابن حوشب اسم « منصور اليمن » بعد هذه الانتصارات الرائعة .

وبعد هذه الجهود الواسعة النطاق ، كتب ابن حوشب إلى الإمام محمد الحبيب يصف له مدى انتشار الدعوة الإسماعيلية ، وأرفق بالرسالة كثيراً من الهدايا الفاخرة والأموال ^(٦) .

(١) عمارة اليمني : تاريخ اليمن من ١٧٠ — ١٧١ ، ١٠٠ .

(٢) الصليحون والحركة الفاطمية من ٤٠ وما بعدها ، تامل عامر : القرامطة من ١٢٤ وما بعدها .

(٣) عمارة اليمني : تاريخ اليمن من ١٧٢ .

(٤) المقرئ : المناظر الخفا من ١٠١ ، ١٠٢ .

(٥) النعمان : افتتاح الدعوة من ٤٥ .

(٦) المقرئ : المناظر الخفا من ٤١ ، افتتاح الدعوة من ٤٥ — ٤٦ ، الحادي الباني أسرار الباطنية من ٢٧ . قال النعمان إن الهدايا شملت طرائف اليمن وطرزها .

واهتم ابن حوشب بنشر الدعوة الإسماعيلية خارج بلاد اليمن ، فأرسل دعاته إلى اليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب^(١) .

ووجه الإمام الإسماعيلي محمد الحبيب اهتمامه إلى بلاد المغرب ، ورأى أن يكون نشر الدعوة الإسماعيلية فيها هي الخطوة الثانية بعد نجاح انتشارها في بلاد اليمن .

وكان رجلنا أبو عبد الله الشيعي قد بدأ اتصاله بالإمام محمد الحبيب الذي « رأى أهليته ، فبعث به إلى ابن حوشب ، صاحب اليمن ، وأمره بامتثال أمره والاقتداء بسيرته ، ثم يذهب بعدها إلى المغرب ، ويقصد بلد كتامة^(٢) » .

لم يتجه أبو عبد الله الشيعي إلى المغرب مباشرة ، فقد رأى الإمام أنه في حاجة إلى « دورة تدريبية » يتلقاها على يد أستاذ كبير له خبرته الواسعة في الدعوة الإسماعيلية ، وقد أثبت نجاحه عملياً في نشرها في أرجاء بلاد اليمن .

وبدأ تتلمذ أبي عبد الله الشيعي على أيدي أستاذه ابن حوشب ، منصور اليمن ، الاستجابة لأمر الإمام الإسماعيلي . فقد كتب الإمام إلى ابن حوشب رسالة عهد فيها بأبي عبد الله إليه « يبعثه ، ويرشده ويبلغه »^(٣) .

وقدم أبو عبد الله على ابن حوشب ، فلزمه ، وشهد مجالسه ، وأفاد من

(١) افتتاح الدعوة ص ٤٧ — وبذكر النعمان أيضاً (ص ٥٣) أن داعية ابن حوشب في مصر كان أبو محمد عبد الله بن عباس وهو الذي استغلفه على الدعوة بعده

(٢) المقرئ : اعطاء العنقا ص ٥١ .

(٣) افتتاح الدعوة ص ٥٩ .

علمه^(١) . ومما ساعد على توثيق الصلات بين الأستاذ والتلميذ ، أن ابن حوشب كان يعرف أبا عبد الله من قبل ، ويشهد له بالنبوغ والفضل ، ولذا فإن ابن حوشب « قرب مجليه ، وأدنى مكانه ، ورفع من قدره ، وصحبه في جميع غزواته »^(٢) .

(١) انماط الصفا ج ١ ص ٥١ .

(٢) افتتاح الدعوة ص ٦٠ .

٣ — الحارثان وصاحب البذر

انتهت «الدورة التدريبية» ، وآن الأوان ليتخرج أبو عبد الله الشيعي من «معهد» ابن حوشب لإعداد الدعاة الإسماعيليين في اليمن . أما العطل المناط به هذا «الخريج» ، فهو الدعوة الإسماعيلية في بلاد المغرب ، كما حدده الإمام محمد الحبيب حين بعث هذا «التلميذ المجتهد» إلى الأستاذ القدير في اليمن .

وكان الإمام موقناً أن بلاد المغرب هي المكان الصالح لتحقيق الآمال القديمة بقيام دولة إسماعيلية فاطمية علوية شيعية ، حتى أن الإمام قال لابنه عبيد الله بعد أن سمع بانتصارات ابن حوشب في اليمن . هذه دولتك قد قامت ، لكن لا أجد ظهورها إلا من المغرب ^(١) كما قال الإمام أيضاً لولي عهده عن هذه الانتصارات : « هذه ثمرة أيامك وبركة دولتك » ^(٢) .

ويروى المقرئ ^(٣) أن موسى الكاظم بن جعفر الصادق سئل عن ظهور القائم ، فأجاب : « إن ظهور القائم مثله كمثل عمود من نور سقط من السماء إلى الأرض ، رأسه بالمغرب ، وأسفله بالشرق » . ثم يعلق المقرئ على هذه الرواية فيقول : « وكذلك كان بداية أمر المهدي عبيد الله ، فإنه ابتداء من المغرب . وإنتهى أمره على يد بني في المشرق » .

وحدد «الأستاذ» ، منصور اليمن ، ميقات انطلاق تلميذه النابغ إلى

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٢ .

(٢) الحمداي : الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٣٧ .

(٣) انماط الحنفا ج ١ ص ٥٤ .

مهمته الكبرى ، وهو « وقت خروج أهل اليمن إلى مكة للحج »^(١)

ودقت ساعة العمل ، وبدأ أبو عبد الله رحلته التاريخية ، ليكتب اسمه في سجل الخالدين . والتقى ابن حوشب بتلميذه ليقول له : « إن أرض كتامة من المغرب قد حرشها الحلوانى وأبو سفيان ، وقد ماتا ، وليس لها غيرك ، فبادر فإنها موطأة ممدة لك »^(٢) . وأمد ابن حوشب أبا عبد الله بتقدر كبير من المال ، وإختار له رفيقا في سفره ، هو عبد الله بن أبي الملاحف . وغادر أبو عبد الله اليمن في تكتم شديد وفي سرية تامة ، فيقول القاضى النعمان^(٣) أن ابن حوشب « كان إذا بعث رجلا لوجه من الوجوه ، لم يعلم ذلك بمسيره أحدا من أهل ولا ولد ، لا من قريب ولا بعيد ، ولا يعرف أين يتوجه ولا أين سلك » .

أصبح أبو عبد الله الشيعى هو « صاحب البذر » كما سماه الحلوانى ، وقد حفظ لنا القاضى النعمان هذه التسمية . وقد ظلت أرض المغرب محروثة ، في شوق شديد إلى البذور ، على مدى سنوات طويلة . اختلف المؤرخون في تحديدها ، فيرى ابن الأثير^(٤) والمقرئ^(٥) أن الإمام جعفر الصادق قد بعث الداعيتين سنة ١٤٥ هـ فيكون بين دخولهما المغرب ودخول أبي عبد الله ١٤٣ سنة ، بينما حدد القاضى النعمان^(٦) هذه السنوات بمائة وخمس وثلاثين سنة .

(١) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٦٠ .

(٢) انماط الحنفا ص ١ ص ٥٥ ،

(٣) افتتاح الدعوة ص ٦٠ .

(٤) ص ٨ ص ١١ .

(٥) انماط الحنفا ص ١ ص ٥٠ .

(٦) افتتاح الدعوة ص ٥٨ .

فمن هما هذان الحارثان ؟ ... ومن بعثهما إلى المغرب ؟

يكاد يجمع المؤرخون الأقدمون على أن هذين الداعيين ، أبي سفيان والخلواتي ، قد بعثهما الإمام جعفر الصادق ^(١) . ولكن صاحبي كتاب (عبيد الله المهدي) ^(٢) يخالفان هؤلاء المؤرخين ، فيقولان : « إن إرسال الخلواتي وأبي سفيان كان على يد ابن حوشب في عهد أحمد بن عبد الله القداح ، وإن ذلك لا بد أن يكون بأمر الإمام الحسين وحجته أحمد بن عبد الله القداح ، لأنه لا يعقل أن ينفرد ابن حوشب بأمر دونهما . كما نستطيع أن نفهم اجتهاد هؤلاء جميعا في نشر الدعوة الإسماعيلية في البلاد النائية ، فقد أدركوا نجاحها في بلاد اليمن ، ومن ثم عملوا على أن يضعوها موضع التجربة كذلك في إفريقية . كما نرى أيضا أن إرسالهما يجب أن يكون بعد سنة ٢٧٠ هـ ، حيث نجح ابن حوشب في أداء مهمته وتسمى بمنصور اليمن » .

ومع تقديرنا لاجتهاد المؤلفين الفاضلين في كتابهما القيم ، فإننا لا نوافقهما على هذا الرأي . وإن من يقرأ رسالة الافتتاح للقاضي النعمان ، المتوفى سنة ٣٦٣ هـ ، والتي تم تحقيقها وطبعها ونشرها مؤخرًا في بيروت سنة ١٩٧٠ ، ليجد كثيرًا من التفاصيل حول هذين الداعيين ، مما يمكن من أن يستنتج أنهما عاشا في عصر سابق تمامًا لعصر ابن حوشب . وخاصة أن النعمان يكتب بعد قيام الدولة الفاطمية ، بقليل ، فسكتب في النصف الأول من القرن الرابع (سنة ٣٤٦ هـ) أي بعد مضي نصف قرن فقط على أحداث رسالته . وكان النعمان مطالعًا على كل أسرار هذه الدعوة ، فقد كان للنعمان قاضي قضاة الدولة الفاطمية ، وهو أيضًا من كبار الدعاة الفاطميين .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٠ — ١١ ، المقرئ : اتعاظ الخلق ج ١ ص ٥٠ ، النعمان : افتتاح الدعوة ص ٥٤ .

(٢) حسن إبراهيم وطه مشرف : عبيد الله المهدي ص ٧٥ .

رسم الإمام جعفر الصادق الطريق أمام أبي سفيان والحلواني ، فقد
« أمرهما أن ينسطا ظاهر علم الأئمة من آل محمد صلوات الله عليهم وينشرا
فضلهم ، وأمرهما أن يتجاوزا إفريقية إلى حدود البربر ، ثم يفترقان ، فينزل
كل واحد منهما ناحية »^(١) .

نزل أبو سفيان قرية تسمى « مرجانة »^(٢) ، وفي مكان منهما يسمى
« تالا » أو « تالة »^(٣) ، حيث ابتنى مسجدا ، « وكان أهل تلك النواحي
يأتونه ويسمعون فضائل أهل البيت صلوات الله عليهم منه ، ويأخذونها عنه »
وأصبحت مرجانة « دار شيعة »^(٤) .

أما الحلواني ، فقد رجع إلى منطقة (سوجار)^(٥) ، فنزل ناحية تسمى
« الناظور »^(٦) ، وتحدث القاضي النعمان عن جهوده فقال : « وكان في العبادة
والفضل والعلم علما في موصفه ، فاشتهر به ذكره ، وضرب الناس من القبائل
إليه ، وتشيع الناس من القبائل إليه ، وتشيع كثير منهم على يديه من كتامة »^(٧)
ونقرة وسماته » .

(١) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٥٤ .

(٢) وهي قرية قديمة في تونس ، تقع على مرحلة من سبيلية (معجم البلدان ص ٥٠٩) .

(٣) وهي مدينة تونسية قديمة لا تزال باقية حتى اليوم ، وتقع على بعد ١٧ ميلا شرق
الحدود الجزائرية .

(٤) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٥٥ .

(٥) ذكر ابن الأثير (الكامل ص ٨٠ من ٣٩) أن اسم هذه المنطقة هو (سوق حمار)
ولكننا أفضل لفظ (سوجار) كما ذكرها النعمان (ص ٥٧) .

(٦) جتوب وادي بجاية على مرحلتين من قرية تاروت العامرة (أنظر حاشية رسالة
افتتاح الدعوة ص ٢٥٧) .

(٧) كتامة إحدى قبائل المغرب الكبيرة وأبنائها من البربر وينسبون إلى كتم بن
برلس بن بر ، وكانوا يعيشون في مكان حصين في جبل إيسكجان

وبشر الخلواني أهالي المغرب بقسود من يبذر الأرض التي حرثها هو وزميله أبو سفيان ، فقال الخلواني : « بعثت أنا وأبو سفيان فقيل لنا : اذهبا إلى المغرب ، فإنما تأنيان أرضا بورا فأحرثاها واكرباها وذللاها إلى أن يأتيها صاحب البذر فيجدها مذلة فيبذر حبه فيها »^(١)

ثم مات الداعيان ، وقد مانا في وقت متقارب^(٢) ، وقد تركا أرضا صالحة تنتظر الحب الذي سيبذره فيما بعد أبو عبد الله الشيعي .

ونحن نسأل : هل كانت جهود أبي سفيان والخلواني هي وحدها الأساس الذي أقام عليه أبو عبد الله الشيعي بناء الدعوة الفاطمية ؟

والإجابة على هذا التساؤل بالنفي ، إذ يفصل بين الداعيين وبين أبي عبد الله سنوات ، نبلغ نحو قرن ونصف قرن . وقد تكون عوامل الطبيعة والتعرية قد تفتت في هذه الأرض فأخفت معالم الأرض التي اجتهد الداعيان في حرثها وتمهيدها .

ولذا نقول ، أننا وإن كنا لا ننكر جهود وأفضال الداعيين في بث تعاليم الشيعة بين أهالي المغرب ، إلا أننا نرى أن جهودها المشكورة لم تكن هي الأساس الوطيد الذي أقام أبو عبد الله عليه ذلك البناء الفاطمي الشاهق .

والحقيقة التاريخية أن ظروف الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في بلاد المغرب ، كانت هي التي تجعل أرض المغرب صالحة لبذر أبي عبد الله الشيعي .

(١) الزعمان : افتتاح الدعوة ص ٩٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل - ٨ ص ٢١ .

لقد عرف أهالي المغرب تعاليم الشيعة منذ سنوات طويلة ، على أيدي
الأدارسة الذين نجحوا في إنشاء دولة علوية في المغرب الأقصى سنة ١٩٦٩ هـ ، وقد
رحب الأهالي من البربر بإنشاء هذه الدولة ، التي حثمت لهم رغبتهم القديمة
في الخلاص من الحكم العباسي

تأثرت العصية بين البربر ، والعرب الذين سكنوا بلاد المغرب بعد الفتح
الإسلامي . وقد كان البربر حينئذ أقل من العرب حضارة ورقيا ، ونظر البربر
دائما إلى العرب على أنهم « عناصر مفترضة ودخيلة »^(١) . ومما زاد في
العصية بين الفريقين اشتعالا ، اغتقاد البربر للاستعداد الفكري لتقبل الحضارة
العربية الإسلامية نتيجة كراهيتهم للعرب ، ونظرتهم إليهم كعنصر دخيل
عليهم ، ورغبتهم في التحرر من الحكم العربي .

وهكذا كانت تلك الروح القومية عند البربر ، تدفعهم إلى حركات
انفصالية ، وهي تشبه تماما تلك الروح القومية التي سادت بين الموالي الفرس
في المشرق ، في العراق وخراسان ، ودفعتهم إلى القيام بحركات ثورية ضد
الدولة الأموية التي انتهجت سياسة عربية واضحة^(٢)

وكانت معظم مناطق بلاد البربر — عدا الشريط الساحلي الضيق —
تشكون من بتاع رملية وتلال جرداء مجربة ، لا تنفي للبربر بحاجاتهم
الاقتصادية ، ولا توفر الظروف الملائمة لقيام حضارة متقدمة . كما كانت فداحة
الضرائب التي أثقلت كاهل البربر من العوامل التي جعلتهم يتطلعون إلى
التحرر من الحكم العربي .

(١) Nicholson : The Fatimite Dynasty, p. 26.

(٢) أنظر فصل الموالي في كتابنا (للعراق في ظل الحكم الأموي) نجد كثيرا من

التفاصيل .

ولكن تمرد البربر على الولاة ، لم يكن خروجاً على الدين ، وإنما رغبة في التحرر من السلطة الحاكمة التي فرضت من الضرائب ما لم يفرضه الدين^(١).

وتعالت أصوات البربر دائماً بالأنين والتألم ، ثم بالشكوى إلى الخلفاء العباسيين ، ولكن صيحاتهم كانت صرخات في وإد تبددها المسافات الطويلة التي تفصل بين بلاد المغرب ، والعاصمة المركزية بغداد في بلاد العراق في شرق الدولة .

وكانت الدولة العباسية قد خلقت دولة الأغلبية لمواجهة دولة الأدارسة التي قامت على يد إمام علوى هو إدريس بن عبدالله الذى نجح من موقعة فخ في الحجاز في عهد الخليفة العباسي الرابع المهدي^(٢) . وقد خلفه ابنه إدريس الذى « قام بأمر البربر ، فولى أمرهم أحسن ولاية »^(٣) . وقد اتسع نفوذ إدريس بن إدريس بن عبدالله ، ووفدت عليه وفود البربر والعرب من أرجاء بلاد المغرب تعلن له تأييدها ، وبدأ صراع عنيف بين الأغلبية والأدارسة ، ووضع الأغلبية سياسة ترمى إلى إبعاد البربر عن تأييد الأدارسة^(٤).

وكانت تعاليم الشيعة قد انبثت في قبيلة كتامة ، وأصبحت هذه القبيلة الكبيرة تصاح لتكون أساساً لجهود أبي عبدالله الشيعي .

(١) - ابن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٥

(٢) السعوى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٣٦ ، الأصفهاني مقاتل الطالبين ص ٤٩٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٦٠ ، الأصفهاني : مقاتل الطالبين ص ٤١١ .

(٤) يقول الناصري في كتاب (الاستنفا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ١٦٣) :

« وانتفى إلى ابن الأعلب ونجا عليه إدريس من الاستفحال ، فأرغف عزمه على القضاء بين البربر وأبياتهم على إدريس »

٤ — الرحلة التاريخية

غادر أبو عبد الله الشيعي - كما رأينا - بلاد اليمن في موسم الحج ، قاصداً مكة ، ومعه رفيقه عبد الله بن أبي الملاحف . ثم تغير هذا الرفيق ، فلحق مكانه آخر ، وهو إبراهيم بن إسحاق الزبيدي ، وهو من أهالي اليمن . فقد أصاب أم عبد الله مرض عقلي ، وأصبحت في حاجة إلى رعاية ابنها . ولم يكن اختيار ابن حوشب لذين الرفيقين موقفاً ، فيقول القاضي النعمان^(١) : « ولم يكن إبراهيم هذا بمحمود الفعل ، وكذلك كان ابن أبي الملاحف » .

وخرج أبو عبد الله من « عدن لاعة » مع رفيقه ، وبعث ابن حوشب بعض رجاله لتوديع أبي عبد الله ورفيقه ، كما كتب إلى ولاة المدن والقرى الواقعة على الطارق بين اليمن ومكة ، يوصيهم على داعيته ورفيقه . وجلس ابن حوشب في مجلس له فوق الجبل ، يرنو بعينه إلى أبي عبد الله وقد بدأ رحلته ، ويشير ابن حوشب إليه بإصبعه ، ويقول « وإن بين كثفيه لنجاة خلق عظيم^(٢) » .

انتهت مناسك الحج ، واستقر الحجاج في (منى) ، وأخذ أبو عبد الله يتجول في أنحاء منى ، يبحث عن حجاج كثر ، حتى وجد رجالهم ، وأنصت إلى حديثهم ، فوجد رجالين منهم ، هما خريث الجملي وموسى بن مكارمة ، يذكرا أن لأصحابهما فضائل على بن أبي طالب رضي الله عنه .

وجلس أبو عبد الله إلى هؤلاء الكتاميين ، يحادثهم

(١) النعمان : انتحاح الدعوة ص ٦١

(٢) المصدر السابق .

(١) المصدر السابق ص ٦٣ .

حدثهم ، وكان أبو عبد الله على نصيب كبير من العبقرية والذكاء والفطنة ، يخاطب الناس على قدر عقولهم وميولهم ، فهو يخاطب الوجدان كما يخاطب العقل ، ولذا لا عجب أن حاز في ساعات قليلة إعجاب أهل كتامة وتقديرهم ولذا سألوه عن رحاله ، فدلهم عليه .

وفي اليوم التالي ، قدم الكتاميون عليه في رحاله ، « فحدثهم وأوسع في الحديث ، وازدادوا فيه رغبة وعليه اقبالا ، فجعل يسألهم عن بلدهم فيخبرونه »^(١) .

نجح أبو عبد الله في الفوز بحب الكتاميين وثقتهم ، وتفاعل من نجاحه في مهمته الكبيرة ، فقد « وجد لديهم بذرا من ذلك المذهب »^(٢) .

وحانت ساعة الرحيل من مكة ، فسأل حجاج كتامة أبا عبد الله عن وجهته ، فقال أنه راحل إلى مصر ، فأبدوا سرورهم ، إذ أنهم يمرون بمصر خلال رحلتهم إلى وطنهم بالمغرب ، ويمكن لأبي عبد الله أن يرافقهم في طريقهم من مكة إلى مصر ، مما يتيح لهم فرصة الاستمتاع بعذب حديثه وبعلمه الفياض^(٣) .

وخلال الرحلة من مكة إلى مصر ، أحاط الكتاميون بأبا عبد الله بمظاهر التكريم والإحترام « وجعلوا يمشون حوله إذا سار ، وينزلون بقربه إذا نزل ، ويخدمونه ويعظمونه » . حتى إذا اقتربوا جميعاً من مصر كان « أمره في بكل يوم أمراً جديداً لم يكونوا سمعوا بمثله ، ويستفتونه فيفتيهم ، فمالت إليه قلوبهم »^(٤) .

(١) المصدر السابق .

(٢) المغريزي : انباط الخفا - ١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل - ٨ ص ١٠ وما بعدها .

(٤) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٦٣ .

ولم يهدف أبو عبد الله إلى استمالة حجاج كتامة إليه ، أو الفوز بثقتهم وتقديرهم ، فحسب ، بل كان يسعى إلى أهداف أبعد مدى ، فهو يريد الوقوف على الأحوال العامة على بلاد كتامة ، فهي الأرض التي سيبذر بها ، كما أنها أرض مجهولة لديه لم تطأها قدماء .

فكان أبو عبد الله ينتهز كل فرصة تسنح له ، فيسألهم عن أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعن المسافات بين الأماكن المختلفة ، فهو يريد صورة واقعية توضح له أحوال السكان ، وجغرافية البيئة . وكان أبو عبد الله — كعهدنا به دائماً — ذكياً لبناً ، فلم يشأ أن يثير شكوكهم ، مما قد يجعلهم يتساءلون هم بدورهم عن دوافع تساؤلاته الكثيرة ، فكان هو يخبرهم بأحوال البلدان والعشائر الأخرى^(١) . فبدأ أبو عبد الله للكتاميين أنه يريد بتساؤلاته عقد مقارنات بين أحوال المغرب وأحوال الأمصار الأخرى . وقد حفظ القاضي النعمان لنا تساؤلات أبي عبد الله ، وإجابات الكتاميين^(٢) .

ودار الحوار بين أبي الله ، وبين حجاج كتامة على هذا النحو :

أبو عبد الله : كيف طاعتكم للسلطان وحكمه عليكم ؟

حجاج كتامة : ماله علينا من طاعة ولا حكم أكثر من أنا نقول إنه سلطان .

أبو عبد الله : وكم بينكم وبين موضعه ؟

حجاج كتامة : مسيرة عشرة أيام .

أبو عبد الله : فبالقرب منكم أمصار ؟

حجاج كتامة : نعم ، ميل^(٣) ، وسطيف^(٤) ، وبلزمة^(٥) .

(١) المصدر السابق ص ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٤ — ٦٦ .

(٣) ميل : مدينة الجزائر تقع على بعد حوالي ٤٣ ميلاً إلى الشمال الغربي من قسطنطينية .

(٤) سطيف : في الجزائر أيضاً على بعد ٤٤ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من بجاية .

(٥) بلزمة : جنوب سطيف ، على مقربة من قسطنطينية . (أنظر مدجم البلدان لياقوت ،

وحاشية رسالة افتتاح الدعوة) .

أبو عبد الله : فإسقاط إفريقية بها عمل ؟
حجاج كتامة : لا ، فإنما بها رجال ملسكوها ، ماله عندهم أكثر من
الدعوة على المنابر .

أبو عبد الله : فلهم عليكم طاعة ؟
حجاج كتامة : لا ، بل هم يدارون عن قرب منهم منا ، ونحن الغالبون عليهم .
أبو عبد الله : فإلى من يرجع أمركم ؟

حجاج كتامة : كل رجل منا في نفسه عزيز ، ولنا أكابر منا في كل قبيلة
وعندنا قوم نظروا في شيء من العلم ، ومعلمون نستفتيهم
في أمر ديننا ونسألكم إليهم فيما يكون بيننا ، فمن حكموا
عليه ألزم نفسه ما ألزموه ، وإن عند^(١) عن ذلك قامت
الجماعة عليه ، وما وجب من أموالنا من عشر وصدقة
أخرجناه نحن لأنفسنا فدفعناها إلى الفقراء فينا .

أبو عبد الله : فلا سبيل للسلطان عليكم في ذلك ؟

حجاج كتامة : لا .

أبو عبد الله : فكم مسافة بلدكم ؟

حجاج كتامة : مسافة خمسة أيام طولا في عرض مسافة ثلاثة أيام .

أبو عبد الله : فأنتم قبيل واحد ؟

حجاج كتامة : يجمعنا اسم كتامة ، ثم نفترق قبائل وأفخاذا وبيوتات .

أبو عبد الله : فبعضكم ناء من بعض ؟

(١) عند : بفتح الحروف الثلاثة .

حجاج كتامة : ما بيننا كثير تباعد .

أبو عبد الله : فأمركم متفق ؟

حجاج كتامة : لا ، نحن نحارب بعضنا بعضا ، ثم نصلح بعد القتل ،
ويصلح القوم منا قوماً ويحاربون آخرين دأبنا .

أبو عبد الله : فإن دهمكم غيركم تجتمعون ؟

حجاج كتامة : ما رام ذلك منا أحد قط .

أبو عبد الله : ولم ؟

حجاج كتامة : لكثرة عدونا وامتناع بلدنا .

أبو عبد الله : وكم يكون عددكم ؟

حجاج كتامة : ما أحصى ذلك أحد منا ولا من غيرنا ، فيما علمناه .

أبو عبد الله : فعندكم الخيل والسلاح ؟

حجاج كتامة : ذلك أكثر كسبنا وبه نفتخر وإياه نعتد ، لحاجتنا إليه
لما بيننا من حروبنا^(١) .

وصل الركب إلى مصر ، وكان أبو عبد الله قد نجح في تكوين صورة
كاملة واضحة متكاملة عن أحوال كتامة وبلادهم . وحانت ساعة الفراق ،
وبدأ أبو عبد الله في توديع أصحابه ، وأبدى السكتاميون ألماً شديداً لفراقه ،
ثم سألوه : ما يقيمك ها هنا ، وما نرى معك من تجارة ، ولا هو بلدك ؟
فأجاب : أطلب التعاليم . فقالوا له : ما نرى أنك تجد بلداً أجدى عليك

(١) أورد المفريزي (تعاطف الحفا - ١ ص ، ٥٦-٥٥) بعض هذا الحوار ، ولكننا
رأينا الاعتماد على رسالة انتاح الدعوة للنعمان حيث أوردت الحوار كاملاً (ص ٦٤ - ٦٦) .

في التعليم من بلدنا . وأراد الكتاميون إقناع أبي عبد الله يقبل مراقبته لهم ، فأخذوا يوضحون له مناهل العلم في بلادهم . وتظاهر أبو عبد الله بالحيرة ، وأنه لا يستطيع اتخاذ قرار حاسم ، فزادوا إلحاحاً حتى رضخ لرجائهم . وأبدى الكتاميون « سروراً شديداً » . ثم اجتمع الكتاميون ، وجمعوا بعض الدنانير ، وقدموا على أبي عبد الله ، وألحوا عليه في قبولها « لتقوى بها نفسه » فرفض قبول الدنانير في إصرار « فعظم في أعينهم وزادت هيبتهم في صدورهم ^(١) » .

وبدأ أبو عبد الله رحلته التاريخية مرة أخرى ، من مصر إلى المغرب . وهو الآن بين جماعة قد منحته ثقها ومودتها وتقديرها ، وهم الذين سيفتحون له أبواب بلادهم ليدخل إليها ثابت الأقدام ؛ قوى البنان ، لبدأ مهمته التاريخية الخالدة .

(١) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٦٧ .

• — في المغرب

بدأ أبو عبد الله والسكتميون رحلتهم من مصر إلى المغرب ، حتى وصلوا إلى طرابلس ، ومنها إلى قسطنطينية^(١) . حتى وصل الركب إلى (سوجمار) حيث أقام بالأمس البعيد الداعي الأول الحلواني^(٢) . وخرج حريث وموسى وكانا من حجاج كتامة من الشيعة ، إلى أصدقاء لهما في سوجمار ممن يعتنقون المذهب الشيعي ، وهم أبو المقتش ، وأبو القاسم الوريثي ، وأبو عبد الله الأندلسي ، يخبراهم بأمر أبي عبد الله . وقدم هؤلاء الثلاثة على أبي عبد الله يلحون عليه في النزول في ضيافتهم . ولم يشأ أبو عبد الله أن يفض أهداً منهم ، فلجأ إلى السهام ، فخرج له سهم أبي عبد الله الأندلسي ، فأصبح رجلنا أبو عبد الله ضيفاً عليه^(٣) .

وفي ليلة تالية ، قدم هؤلاء الثلاثة مع حريث وموسى على أبي عبد الله . وتبادل الجمع الحديث « عن علم الشيعة وفضل أهل البيت » ، حتى إذا قرب موعد فض المجلس قال أبو المقتش لأبي عبد الله : والله إني لأظنك صاحب البذر الذي يذكره الحلواني ، فطلب أبو عبد الله منهم جميعاً « الصمت والسكتمان »^(٤) .

ثم رحل الجميع إلى أرض كتامة ، يوم الخميس ١٥ ربيع الأول سنة

(١) قسطنطينية: مدينة وكورة كبيرة من تونس ، وتقع على بعد خمسين ميلاً إلى الجنوب الغربي من قنصة .

(٢) ابن خلدون : العبر ٤ من ٣٢ .

(٣) النعمان : افتتاح الدعوة من ٦٨ - ويسميه ابن خلدون (محمد بن حمدون بن سبائك الأندلسي) .

(٤) افتتاح الدعوة من ٦٩ - ٧٠ .

٢٨٠ هـ^(١) . وتنافس كل فرد منهم على الفوز باستضافة أبي عبد الله الشيعي ، حتى كادوا يشتجرون ويتنابدون . ثم سألهم أبو عبد الله : أين يكون فج الأخبار ؟ وأبدى الكتاميون تعجبهم إذ « لم يكونوا ذكروه له »^(٢) ، فأجابوه : عند بني سليمان^(٣) . فقال أبو عبد الله : إليه تقصد ، ثم تأتي كل قوم منكم في ديارهم ، وتزورهم في بيوتهم ، « رضى بذلك الجميع »^(٤) .

واتجه أبو عبد الله إلى جبل (إيكجان)^(٥) ، وفيه فج الأخبار . فقال هناك : « هذا فج الأخبار ، وما سمى إلا بكم ، ولقد جاء في الآثار : المهدي هجرة به الأوطان ، ينصره فيها الأخبار منه أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشتق من الكتمان ، ويخرجكم في هذا الفج سمي فج الأخبار »^(٦) .

وسمعت كثير من قبائل البربر عن أبي عبد الله ، فقدمت عليه من كل مكان « فعظم أمره إلى أن قتلت كتامة عليه مع قبائل البربر ، وهو لا يذكر في ذلك اسم المهدي »^(٧) . بل كان يكتبني بالحديث عن فضائل علي بن أبي طالب وأولاده وأحفاده^(٨) .

(١) ابن الأثير : الكامل - ٨ ص ٣٢ ، النعمان : افتتاح الدعوة ص ٢١ . أما ابن خلدون (العبر - ٤ ص ٣٢ ، القريري : انماط الحنفا - ١ ص ٥٦) فيريان أن أبا عبد الله وصل إليه أرض كتامة سنة ٢٨٨ هـ .

(٢) القريري : انماط الحنفا - ١ ص ٥٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل - ٨ ص ٣٢ ، انماط الحنفا - ١ ص ٥٦ . بينما يذكر النعمان « افتتاح الدعوة ص ٧٢ » هؤلاء القوم فيسميهم (بني سكتان) .

(٤) انماط الحنفا - ١ ص ٥٦ .

(٥) إيكجان : جبل قرب سطيف على مرحلة ونصف من بجاية وتسميته كتامة .

(٦) انماط الحنفا - ١ ص ٥٧ ، افتتاح الدعوة ص ٧٣ .

(٧) انماط الحنفا - ١ ص ٥٧ .

(٨) المصدر السابق .

وتواترت أخبار أبي عبد الله حتى بلغت إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، أمير إفريقية، فأرسل إلى عامله على مدينة (ميلة) يسأله عن أمر أبي عبد الله، وحقيقة أهدافه، فهون العامل من أمر أبي عبد الله، وحقيقة أهدافه، « وذكر أنه يلبس الخشن، ويأمر بالخير والعبادة، فسكت — الأمير — عنه »^(١).

وما لبث أبو عبد الله أن صرح عن أهدافه الحقيقية، فقال: « أنا صاحب البذر الذي ذكر لكم أبو سفيان والحلواني »^(٢). ومن الطريف أن حريثا، الذي رافق أبا عبد الله طوال رحلته، قال له: « ما كان أطول سفرنا معك، ونحن في غفلة عن مثل هذا منك ».

ناقش أستاذنا المرحوم الدكتور حسن إبراهيم حسن^(٣) موقف البربر من المذهب الإسماعيلي، ومدى تقبلهم له، ودوافعهم إلى إعتنافه، فقال: اتخذ أبو عبد الله الشيعي « دار هجرة » في فج الأخيار في أيكجان، فأصبحت مركز حركته وجمع أنصاره من البربر. ويرجع ذلك لسداجة البربر وعدم استعدادهم لفهم مذهب الإسماعيلية بدرجاته المختلفة المتدرجة في الصعوبة، ولذا لم يتعمق البربر في فهم مذهب الإسماعيلية وتعاليمه التي تحتاج إلى أعمال الفكر، وإنما اعتنقوه لأول وهلة مدفوعين بعدائهم للأغلبية السنيين، فلم يكن ثمة ما يساعد على رسوخه في نفوسهم، مما أدى بهذا المذهب إلى الزوال من بلاد المغرب، حتى لم يبق له الآن بقية أو أثر.

ونحن نرى أن بربر شمال إفريقية كانوا مدفوعين في تشيعهم، بحجهم لآل

(١) افتتاح الدعوة ص ٧٣ .

(٢) انماط الصنفا - ٥ ص ٥٧ .

(٣) الدولة الفاطمية ص ٤٩ .

البيت ، حتى أنهم لم يفرقوا كثيرا بين هذا الحب وبين التشيع . وقد كان أساس دعوة كل من الحلواني وأبي سفيان — كما رأينا — الإشادة بفضائل آل البيت . كما أن أبا عبدالله — كما مر بنا — ظل فترة لا يتحدث إلا عن فضائل علي بن أبي طالب وأولاده ، دون أن يصرح بحقيقة أهدافه . حتى أصبح اسم أبي عبدالله هو (المشرقي) ، وأصبح اسم أتباعه هو (المشاركة)^(١) .

(١) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٧٦ .

٦ — دار الهجرة والمجتمع الشيعي

اتسع نطاق دعوة أبي عبدالله الشيعي ، وتكاثر عدد أنصاره وشيعته . وإن كان الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ^(١) قد أنصت بالأمس إلى رأى عامله في مدينة (ميله) الذي هون له أمر أبي عبدالله ، إلا أنه اليوم أدرك خطورة الموقف ، حيث تواترت عاياه أنباء اتساع دعوة أبي عبدالله . إلا أن الأمير الأغلب لم يقطن إلى حقيقة هذه الدعوة أو جوهرها ، فرأى أن يقوم بحملة استكشافية .

بعث الأمير الأغلب بابن المعتصم المنجم ليأتيه بخبر أبي عبدالله ، وليبلغه برسالة شفوية منه . وجاء في أول هذه الرسالة تساؤل للأمير الأغلب ، هو : « ما حملك على سخطي والتوئب في مملكتي وفساد رعيتي والخروج على ؟ » . ثم قال له أنه على استعداد لاشباع أطامعه في عرض الدنيا ، وله حرية الإقامة أو مغادرة البلاد ، ثم هدده في آخر الرسالة بالعقاب والهلاك إن استمر فيما هو عليه ^(٢) .

وطلب أبو عبدالله من رسول الأمير الأغلب ابلاغه برده ، فهو لا يعبأ بالتهديد والوعيد ، وهو واقف على مواطن الضعف في دولة الأغلبة ، عارف بمظالم بني الأغلب ، وهو لا يطمع في عرض الدنيا . ثم دعا أبو عبدالله الأمير الأغلب — في آخر رسالته الشفوية — إلى طاعة الإمام عبيدالله المهدي ، سليل الرسول عاياه الصلاة والسلام ^(٣) .

(١) حكم من سنة ٢٦١ إلى سنة ٢٨٩ هـ ويسمى الأمير إبراهيم الثاني .

(٢) أنظر هذه الرسالة في كتاب افتتاح الدعوة للنعمان ص ٧٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٨٠ — ٨١ .

وارتاع الأمير الأغلب حينما ثقل إليه رسوله حديث أبي عبد الله الشيعي . وزاد من خطورة الموقف تشيع بعض أبناء البيت الأغلب وبعض خاصتهم ، حتى أن الأمير حين ولي إبراهيم بن علي بن أبي حجر علي (قفصه) وقسطنطينية ، وأمره أن يسير في أهلها بسيرة (العمرين) ^(١) قال إبراهيم له أنه لن يسير فيهم إلا بسيرة علي بن أبي طالب ^(٢) .

ثم تعرض أبو عبد الله لمؤامرة خطيرة ، وينسبها المقرئ إلى حقد قبائل البربر على بني سكتان الذين احتضنوا أبا عبد الله . واشترك في هذه المؤامرة ، ولالة ميله وسطيف وبلزمة ، وبعض رؤساء القبائل . واضطر أبو عبد الله إلى الاختفاء ، واستعد بنو سكتان للقتال ^(٣) .

تولى القيادة العسكرية الحسن بن هارون الفسعي ، وهو من رجالات كتامة . وعرض على أبي عبد الله أن يصاحبه إلى مدينة تاصروت ^(٤) . وهناك « أتته القبائل من كل مكان ، وعظم شأنه ، وصارت الرئاسة للحسن بن هارون ، وسلم إليه أبو عبد الله أعنة الخيل ، وظهر له من الإستتار ، وشهد الحروب ، فكان الظفر له ، وغنم الأموال ، وخندق على مدينة تاصروت ، وقد زحفت إليه قبائل المغرب ، فاقتتلوا عدة مرار ، كان له فيها الظفر ، وصار إليه أموالهم ، فاستقام له أمر البربر وعامة كتامة » ^(٥) .

(١) يقصد عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز

(٢) افتتاح الدعوة ص ٨٢ .

(٣) انماط. المنهاج ١ ص ٥٨ .

(٤) افتتاح الدعوة ص ٩٥ — ٩٩ .

(٥) هكذا كتبها المقرئ ، بينما كتبها النعمان (تاصروت) .

(٦) المقرئ : انماط. المنهاج ١ ص ٥٨ ، أنظر أيضا تفاصيل هذه

الحروب في رسالة افتتاح الدعوة ص ٩٩ — ١١٧ .

أخفقت المؤامرة تماماً ، وحاز أبو عبد الله الشيعي نصرا حاسماً ، وفاز بكثير من الغنائم .^(١) وفي تاصروت (أو بتازروت) بنى أبو عبد الله قصراً لسكنه ، وأقطع أنصاره دوراً حول القصر ، وقدم آلاف من الشيعة يشيدون لهم بيوتاً ، حتى تكامل شكل « دار الهجرة »^(٢) .

تدعم نفوذ أبي عبد الله ، ونجح في تكوين « مجتمع شيعي » في « دار الهجرة » . وقد ميز القاضي النعمان^(٣) بين فئات هذا المجتمع ، فقال : « منهم من أراد بذلك وجه الله عز وجل وطلب ثوابه ، وأخلص فيه له وآثر به ما عنده ومنهم من أراد بذلك الدين والدنيا ودرك حظه من الآخرة والأولى ومنهم من دخل ذلك يبتغي به الفخر والشرف والذكر والرياسة ومنهم من أراد به السكب والفائدة ، ومنهم من دخله الحسد والمنافسة ، ومنهم من صار إليه خوفاً وتقية ومداراة » .

نظم أبو عبد الله شئون هذا المجتمع الشيعي ، فساد الأمن والأمان ، ويصف القاضي النعمان^(٤) أحوال هذا المجتمع الآمن ، فيقول : « فلم ير الناس ولا انتهى إليهم أن قوما كانوا من صلاح الحال والإستقامة على مثل ما كان عليه أصحاب أبي عبد الله » . فكان التجار يحلون بقوافلهم في أمن وسلام . وإذا سقط من أحدهم شيء ، بقي في مكانه حتى يعود صاحبه ليأخذه .

(١) كانت الغنائم من الكثرة حتى باعوا العشرين بعيراً بدينار ، وبيع الجمل بخمسة بسات
(انتتاح الدعوة ص ١١٦)

(٢) انتتاح الدعوة ص ١١٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٢٧ — ١٢٣ .

(٤) المصدر السابق ص ١٢٥ .

وأراد أبو عبد الله أن يكون أنساء المجتمع الشيعي في دار الهجرة يداً واحدة ، وعمل على تهذيب أخلاقهم ، حتى يكون مجتمع الخير والبر ، وحقق للجميع المساواة والعدل والإخاء ، حتى كان الواحد ينادى الآخر « يا أخانا » ، وحسبهم على أداء شعائر الإسلام ، وعاقب المذنب عقاباً صارماً . وأطلق على أصحابه إسم « المؤمنين » ، بينما سمي أعداءهم « الكافرين » . وحلت الرابطة الاجتماعية الجديدة في المجتمع الشيعي محل الرابطة القبلية القديمة .

وأصبح أبو عبد الله قدوة طيبة لأبناء هذا المجتمع الجديد ، وكان مثلاً أعلى في الصلاح والتقوى والزهد والتقشف ، واستمر على ارتدائه الخشن والمرقع من الثياب ، وجعل القرآن الكريم دستوراً له في جميع تنظيماته السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وكان مثلاً للتواضع والتسامح ، فكان أبناء المجتمع ينادونه « يا أخانا » كما ينادون سائر الناس . وظل فترة طويلة بدون زواج . حتى إذا تزوج أخيراً اكتفى بهذه الزوجة دون الزواج بغيرها .

وصف القاضي النعمان^(١) أحوال هذا المجتمع الشيعي ، فقال : « وتحمى الناس المصائب وتركوا الاختلاف في المذاهب ، وصاروا على أمر واحد يتسمون إخواناً » .

واهتم أبو عبد الله بتنظيم مجتمعه الجديد في دار الهجرة . فقسم كتامة أسباعاً ، وجعل لكل سبع منها عسكرياً ، وقدم عليه مقدماً ، وخصص لكل موضع داعياً . وسمى المتقدمين والدعاة (المشايخ) رغم أنهم لم يكونوا من المتقدمين في السن ، وتولى هؤلاء المشايخ تدبير أمور أبناء المجتمع ، وتوزيع ما يحوزوه من غنائم عليهم بالعدل والقسطاس^(٢) .

(١) افتتاح الدعوة ص ١٢٥ — ١٢٦

(٢) المصدر السابق ص ١٢٦

واهتم أبو عبد الله بالدعاة ، فكان يهتم بإعدادهم ويمتحن اخلاصهم ، ويعاينهم على الموت ، وتولى تعليمهم وتدريبهم بنفسه ، فكان يطيل الجلوس إليهم ، يوصيهم ويذكرهم ، ويعظمهم وينصحهم ، ويحثهم على التعاون والتواصل وحسن معاملة الناس ، وأصبح أبو عبد الله قدوة لهم ، إذ اشتهر بالزهد في عرض الدنيا ومباهج الحياة^(١) .

كما اهتم أبو عبد الله بنساء مجتمع (دار الهجرة) ، فكانت النسوة يحضرن مجالس أبي عبد الله ، ويسمعن الوعظ والإرشاد ، كما كن يخدمن « المؤمنين » ويعالجن المرضى والجرحى^(٢) .

(١) المصدر السابق ص ١٢٨ — ١٣١ . ضرب النعمان (ص ١٣٢) مثلاً لهؤلاء الدعاة بداع يسمى (كور بن قنبر) الذي اتقى كل أمواله في مواصلة أخوانه وإطعامهم .
(٢) افتتاح الدعوة ص ١٣٣ — ضرب النعمان مثلاً لهؤلاء النسوة فتحدث عن امرأة يحيى ابن يوسف التي أنقذت جميع أموالها في الجهاد ، وكانت تصنع الطعام بيدها للمجاهدين حتى أن يدها كانت تدميان من الطحن والطهي .

٧ - الجهاد

كانت « دار الهجرة » هي النواة الأولى للدولة التي جاهد أبو عبد الله في سبيل إنشائها . وقد أراد أن تكون هذه الدار هي « المدينة الفاضلة » التي طمع في ظهورها الفلاسفة القدماء . ولذا اهتم أبو عبد الله بالتنظيم الإجتماعي ، وبالتهذيب الأخلاقي ، وجعل الدين أساسا للتنظيم والتهديب . والدين دائما هو منبع القيم الإنسانية والمثل العليا الأخلاقية ، ولا يمكن أن تقوم دولة كبرى إلا على أساس وطيذ ، وقد أراد أبو عبد الله بمجتمعه الشيعي الجديد أن يكون ذلك الأساس الذي يقيم الفاطميون عليه دولتهم التي أملوا في قيامها عبر العصور

أصبح المجتمع الشيعي هو مجتمع الحرية والإخاء والمساواة ، ومجتمع الوفاء والصفاء والنقاء . أمن مستتب ، واستقرار إجتماعي ، وعدل إقتصادي ، في إطار من التدين والتصوف ، أضفى على هذا المجتمع غلالة روحية سمت به ورفعت ذكره . وأصبح أبو عبد الله الزعيم الراشد ، والأخ الأكبر .

وهذا المجتمع المثالي جعل البربر يقارنون بينه وبين النظم الرجعية القديمة البالية التي سادت وما زالت سائدة في دولة الأغلبية وصار البربر يتمنون زوال الحكم الأغلبي ، ويرجون إتساع دائرة هذا المجتمع الشيعي حتى يشمل كل أرجاء أفريقية .

ولم يكن هذا المجتمع الجديد يهدد دولة الأغلبية فحسب . بل كان يهدد أيضاً النظام القبلي القديم السائد في إفريقية منذ قرون طويلة . إن الرابطة في القبيلة هي رابطة الدم ، ولذا فإن قومية البربر هي قومية قبلية . أما المجتمع الشيعي الجديد فهو يعتبر « دار الهجرة » هي الوطن ، ولذا فالرابطة بين أبناء

المجتمع هي رابطة وطنية ، إذ تربطهم وحدة إجتماعية ووطنية ، تؤدي إلى وحدة المصير ، وإلى وحدة الآمال والآلام . فقد كانت « دار الهجرة » هي البوثة التي انصهرت فيها كل العناصر التي اسكنتها ، فزال ما كان بينها من خلافات . كما أصبح التشيع أيضاً رابطة فكرية تمثل وحدة الرأي والمبدأ والاتجاه .

ولذا كان لا بد أن تصطدم دار الهجرة ، ويصطدم المجتمع الشيعي ، بدولة الأغلبية ، وبالتقابل التي تريد الاحتفاظ بنظمها القبلية القديمة . ولابد من صدام الجديد الناهض المتطور ، بالتقديم الرجعي المتأخر ، فهي سنة الحياة ، في كل زمان ومكان .

وهذا ما حدث فعلاً ، وقد شهدنا في الفصل السابق بداية الصراع بين أبي عبد الله الشيعي وبين الأمير الأغلب إبراهيم بن أحمد . كما شهدنا أيضاً المؤامرة الخطيرة التي نسجت خيوطها قبائل البربر .

وفي هذا الفصل نرى استمرار الصراع بين دولة الأغلبية وأبي عبد الله الشيعي . ولكن البقاء دائماً للأصلح .

حاول الأمير إبراهيم الأغلب قتال أبي عبد الله الشيعي مرتين ، ففجئت به الهزيمة . وفي سنة ٢٩١ هـ ، توفرت الظروف لأبي عبد الله ليبدأ نشاطه العسكري ، ومن أجل اتساع نطاق دعوته . وساعده على ذلك موت الأمير إبراهيم في نفس السنة (٢٩١ هـ) ، ثم موت ابنه أبي العباس^(١) ، وتولية

(١) كان أبو العباس على مذهب أبي حنيفة ، ويقول بخلاف القرآن ، وقد مات بعد أبيه بثمانة شهور (افتتاح الدعوة ص ١٤٦) .

(زيادة الله) الذي انصرف إلى حياة اللهو واللعب ، « فاشتد سرور أبي عبد الله » . وأصبح معظم وزراء زيادة الله شيعة « فلم يكن يسوءهم ظفر أبي عبد الله » .^(١)

بدأ جهاد أبي عبد الله ، من أجل اتساع الدعوة ، وامتداد «دار الهجرة» إلى أرجاء إفريقية ، وأصبح من المهتم أن يغزو المجتمع الجديد الناهض المتحد أراضى المجتمعات القبلية ومجتمع بني الأغلب التي تتصف بالتخلف والانحلال ، بحكم الزمن ونتيجة فساد وتحلل النظم السياسية والاجتماعية ومارس أبو عبد الله نشاطا عسكريا واسع المدى ، وخاض معارك حربية كثيرة ، لا مجال في هذا البحث في ذكر تفاصيلها العسكرية ، وقد فصل القاضي النعمان الحديث عنها في رسالته (افتتاح الدعوة) . وقد بدأ أبو عبد الله جهاده بفتح مدينة (ميلة) ، وكان كثير من أهلها من عرب ربيعة ، وقد أعلنوا ولاءهم لأبي عبد الله .^(٢)

وانتقل أبو عبد الله من نصر إلى نصر ، وفتح كثيراً من المدن ، وظل أبو عبد الله طوال هذه السنوات الماضية ، على إخلاصه وولائه للإمام الإسماعيلي محمد الحبيب ، يرسل إليه ، بين حين وحين ، رسله وهدايا .^(٣) وخلال هذه الانتصارات الرائعة ، مات الإمام محمد الحبيب ، وخلفه ابنه الإمام عبيد الله المهدي .

واستمر جهاد أبي عبد الله ، وتوالى إنتصاراته ، ورأى أنه قد أصبح

(١) المقرئى : أتمام الحنفا - ١ ص ٥٩ . رجل زيادة الله من مدينة تونس إلى رقادة

(- افتتاح الدعوة ص ١٤٨) .

(٢) افتتاح الدعوة ص ١٢٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل - ٨ ص ١٠ — ١١ .

من القوة وسعة النفوذ مما يسمح له بدعوة الإمام الجديد عبيد الله المهدي للتقدم إلى بلاد المغرب . فبعث رجالا من كتامة إلى الإمام « يخبرونه بما فتح الله عليه ، وأهم ينتظرونه ، فوافوه بسلامية من أرض حمص » .^(١)

وخلال رحلة الإمام عبيد الله من سلمية إلى سجلماسة ، وما حفلت به من مخاطر ومغامرات ، واصل أبو عبد الله الشيعي جهاده ونشاطه العسكري ، ومخاصمة في مواجهة الأغلبية . فقد نجح أبو عبد الله في فتح مدينتي ميلة وسطيف . وأدرك الأمير الأغلب زيادة الله خطورة الموقف ، فأعد جيشا حشد له أربعين ألف مقاتل ، فكان أكبر جيش شهدته دوله الأغلبية وبذل زيادة الله أموالا كثيرة للقبائل . ونزل الجيش مدينة قسطنطينة وأصبح على بعد مرحلتين من إيكجان حيث يعيش أبو عبد الله الشيعي . وازداد عدد الجيش الأغلب حتى بلغ المائة ألف مقاتل . ولكن أبا عبد الله نجح في إلحاق الهزيمة بهذا الجيش الكثيف^(٢) .

ثم فتح أبو عبد الله مدينتي طينة وبازمة ، وانتصر على جيش الأغلب في موقعة (دار ملول) ، ثم فتح مدينة تيجس ، وانتشر الدعر في سائر المدن ، وحاول الأمير الأغلب تهدئة نفوس رعاياه ، فبعث برسائل إلى جميع المدن ، يطمئن أهلها ، وأمر بقراءة هذه الرسائل من فوق المنابر^(٣) .

واستمر أبو عبد الله في زحفه ، يحوز النصر على قوات الأمير الأغلب ، الذي بدأ كثير من جنده في الانفضاض من حوله . وأراد أبو عبد الله توجيه

(١) المجلد ١ : اتعاظ العتفا ح ١ من ٦٠

(٢) النعمان : افتتاح الدعوة ص ١٥٦ — ١٦٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧٠ .

ضربة قاضية إلى (رقاده) حيث يعيش الأمير . الأغلبى ونزل أبو عبد الله في (القصرين) بينما نزل الأمير في (دار هدين) . واشتبك الفريقان في معركة حامية الوطيس ، دارت فيها الدائرة على الأمير الأغلبى الذى انسحب إلى (الأربس)^(١) .

ومضى أبو عبد الله في انتصاراته ، ففتح مدينتى قسطليلية وقفصة ، ثم اتجه إلى (الأربس) لقتال الأمير الأغلبى ، الذى أسرع بالفرار إلى رقادة ، حيث جمع أمواله وذخائره ونفائسه ثم غادرها ناجيا بنفسه . وانتشرت الفوضى في رقادة ، وانتشر بها اللصوص ينهبون الدور والقصور . وما لبث أن دخل أبو عبد الله رقادة (رجب ٢٩٦ هـ) يعد فرار الأمير ، وقدم أهاليها وشيوخها على أبي عبد الله فهناؤه بالفتح ، وتبرأوا من الأغلبة^(٢) .

استقر أبو عبد الله في رقادة ، وبعث مناديين إلى القيروان ليطوفوا بشوارعها ينادون بالأمان لأهلها . فعاد إليها من هرب منها ، واستقرت أحوالها وساد فيها الأمن والهدوء . وأعلن رجال دولة الأغالية ولائهم لأبي عبد الله .

توطد نفوذ أبي عبد الله الشيعى في رقادة والقيروان . وبدأ في تنظيم حكومته ، فأمر خطباء المساجد بالصلاة على محمد ، وعلى آله ، وعلى أمير المؤمنين الإمام على بن أبي طالب ، وعلى الحسن والحسين ، وعلى فاطمة الزهراء ، رضى الله عنهم جميعا . وأن يكون الأذان بحى على خير العمل .^(٣) ولكن هؤلاء الخطباء لم يذكروا إسم الإمام المهدي في الخطبة ، إذ لم يحن إلا وإن بعد .

(١) المصدر السابق ص ١٩١ — ١٩٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٢١٢ من ٢١٢ — ٢١٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ٨ ص ٤٧ .

كما ضرب أبو عبد الله سكة جديدة ، ولم ينقش إسم الإمام المهدي على الوجهين ، بل جعل عليهما العبارتين الآتيتين : « بلغت حجة الله » ، « تفرق أعداء الله » . ثم ضرب سكة أخرى ، نقش عليها « عدة في سبيل الله » . ووسم الخليل بعبارة « الملك لله » . وكان نقش خاتمه هو « فتوكل على الله » . إنك على الحق المبين»^(١) . كما نقش الخاتم الذي يهر به الأوراق الرسمية : « وتمت كلمة ربك صدقا وعد لا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم»^(٢)

أما الأمير زيادة الله الأغلب ، فقد هرب إلى طرابلس ، ومنها رحل إلى مصر . وكان واليها حينئذ هو عيسى النوشري ، وقد خشي أن يتولى زيادة الله حكم مصر بدله ، إذ سمع عن أطاعه في حكمها ، فرفض السماح له بالإقامة في مصر حتى يأتي له الإذن من العاصمة العباسية بغداد . وبعد ثمانية أيام ، غادر زيادة الله مصر قاصداً بغداد ، ولكنه مات في بيت المقدس ، وقبل أنه مات مسموما ، وكان قد أنفق كل أمواله على شرب الخمر^(٣) .

(١) سورة النمل آية ٧٩ .

(٢) سورة الأنعام آية ١١٥ .

(٣) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٢٢٧ - ٢٢٢ .

٨ — مؤسس الدولة الفاطمية

بعث أبو عبد الله الشيعي إلى الإمام عبيد الله المهدي ، يدعوهُ إلى القدوم إلى بلاد المغرب^(١) . ويصف القاضي النعمان^(٢) خروج الإمام قاصداً المغرب بأنه « هجرة دار قراره بالمشرق » . فقد قال له أبوه الإمام محمد الحبيب : « إنك ستهاجر هجرة بعيدة وتلقى محنة شديدة » .

وغادر الإمام عبيد الله المهدي (سلمية) بالشام ، ومعه ابنه وولي عهده (القائم^(٣)) ، وكان غلاماً حدثاً ، وصحب أيضاً بعض خاصته ومواليه ، ومنهم جعفر الحاجب الذي صحبه في رحلته^(٤) . وأخبر المهدي مراقبيه أنه يقصد بلاد اليمن^(٥) .

ويرى القاضي النعمان^(٦) أن المهدي كان يريد الرحيل من مصر إلى اليمن ولكن أحد دعاة^(٧) كان قد سبقه إلى اليمن ، ثم خرج على طاعته ، بل حاول إغراء ابن حوشب وتحريضه على العصيان ، ولكنه تمسك بوفائه للإمام ، فلم يجد ذلك الداعي من يستجيب له سوى علي بن الفضل .

(١) الفريزي : انماط الحنفا ١ - ٦٠ ، عريب بن سعيد : صلة تاريخ الطبري ص ٥٢ وما بعدها .

(٢) افتتاح الدعوة ص ١٤٩ .

(٣) وهو أبو القاسم نزار (انماط الحنفا ١ - ٦٠) .

(٤) وضم محمد بن محمد اليماني رسالة باسم (سيرة الحاجب جعفر) ، نشرها الأستاذ بايغانونوف في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٦ (القسم الثاني) .

(٥) اليماني : سيرة جعفر ص ١١٠ (مجلة كلية الآداب)

(٦) افتتاح الدعوة ص ١٤٩ .

(٧) وهو فيروز (سيرة الحاجب جعفر ص ١١٠) .

ويرى صاحبى كتاب (عبيد الله المهدي) ^(١) أن اتجاه المهدي إلى بلاد المغرب كان بوحى من أبي عبد الله الشيعي ، ويستدلان على ذلك بأنه كانت في رقة المهدي جماعة من الركتاميين الذين بعثهم أبو عبد الله لمصاحبتة إلى المغرب . ويفسر صاحبى الكتاب حرص أبي عبد الله على قدوم المهدي إليه بأنه كان في حاجة إلى وجود الإمام في المغرب ، حيث كان قد فرغ من صراعه مع المغاربة، وبدأ صراعه مع الأغالبة ، أى أنه بدأ حربه مع دولة منظمة لها جيشها الثابت الدائم ، ولذا فقد أصبح في حاجة إلى مؤازرة معنوية

وكان دعة الاسماعيلية في بلاد اليمن إذ ذاك يعتقدون أن دولة المهدي ستظهر في بلادهم ، كما حرص رؤساؤهم على أن يكون قيامها على أيديهم . وكذلك كانت الحال بالنسبة لدعاة الإسماعيلية في المغرب ، فكانوا يرجون قدوم المهدي إليهم لإقامة دولته . ولكن المهدي لم يكن راغباً في إقامة هذه الدولة باليمن ، بل أزمع الرحيل إل بلاد المغرب منذ خرج من سلمية تلبية لدعوة أبي عبد الله الشيعي ، وتحقيقاً لنبوءة أبيه بقيام دولتهم في المغرب ^(٢)

وعلم الخليفة العباسي بخروج الإمام عبيد الله المهدي من سلمية ، فبعث إلى والى مصر ، عيسى النوشري ^(٣) ، يأمره بالقبض عليه . ويذكر المقرئى ^(٤) أن المهدي أفلت من يد هذا الوالى بوسيلتين ، الأولى حديث رقيق خاطبه

(١) حسن إبراهيم وطه شرف : عبيد الله المهدي ص ١١٧ .

(٢) جمال سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص ٦١ — ٦٢ .

(٣) ذكر المقرئى (اتماظ الحنفا ص ١ ص ٦٠) أن والى مصر كان عيسى النوشوى ، بينما يرى الدكتور حسن إبراهيم (الدولة الفاطمية ص ٥٣) أن هذا العرالى هو عمدين سليمان معتمداً على كتاب الولاة والقضاة .

(٤) اتماظ الحنفا ص ١ ص ٦٠ . أنظر أيضاً كتاب الكامل لابن الأثير ص ٨ ص ٩٣

وجدانه وحذره فيه من غضب الله عليه ، والثانية رشـوـته بقدر كبير من المال .

وخرج المهدي مع مراقبيه ، في زى التجار ، وتعرضوا لقطاع الطرق الذين انتهبوا أموالهم^(١) . ونجح المهدي في الإفـؤـذت من أيدي ولاية طرابلس وقسنطينة ، ثم وصل إلى سـجـلـمـاسـة حيث قبض عليه واليها اليسع بن مدرار إذ كشف زيادة الله الأغـلـبـى عن سره للوالى^(٢)

ويبـدـى المرحوم الدكتور حسن إبراهيم^(٣) عـجـبـه من وصول عبيد الله المهدي إلى سـجـلـمـاسـة ، وهى واحة في أطراف صحراء المغرب الأقصى إذ كان يجب عليه أن يسير إلى إفريقية حيث ذاعت الدعوة الفاطمية وكثر أشياعها وربما سلك المهدي طريق الصحراء الذى تـحـتـرق القوافل التى تسير بين واحات مصر وواحات المغرب الأقصى ليأمن الوقوع في أيدي الأغالبة .

وخلال تواجد الإمام المهدي في سجنه بسـجـلـمـاسـة ، واصل أبو عبد الله انتصاراته العسكرية ، كما مر بنا . وكان أبو العباس أخى عبد الله في رفقة الإمام المهدي ثم افترق عنه في طرابلس ، بأمر من المهدي ، ضمن من افترق عنه من مراقبيه ، حتى لا تتور شبهات الناس حينما يرون هذا الحشد الكبير وقدم أبو العباس إلى القيروان .

خرج أبو عبد الله الشيعى للافراج عن الإمام المهدي في رمضان سنة ٣٩٦ هـ ، واستخلف أخاه وأحد رجاله ، ويدعى (أبو زاكى) ، على

(١) يذكر النعمان (ص ١٥١) أن اللصوص انتهبوا أيضا كتبها كانت فيها علم من علوم الأئمة وحزن الإمام المهدي على ضياعها .

(٢) المقريزى : انماظ العنفا ص ١٠٢ : كان ابن مدرار سنيا يكره الشيعة .

(٣) الدولة الفاطمية ص ٥٤ .

افريقية ، خلال غيابه عنها لقضاء مهمته الخطيرة ، والتي ستستغرق أربعين يوماً . وقاد أبو عبد الله جيشاً كثيفاً « فاهتز المغرب لخروجه ، وخافته زفانة ، وزالت القبائل عن طريقه »^(١) وكانت قد مضت ثلاثة شهور والمهدي في سجنه .

وكان أبو عبد الله الشيعي يستطيع الاستيلاء على سجنه واسمه والقضاء على حكم ابن مدرار في يسر وسهولة ، ولكنّه رأى انتهاج سياسة الملاينة والحكمة « خوفاً على عبيد الله »^(٢) ، فقد يقدم الوالي على قتل الإمام في سجنه .

وصل أبو عبد الله إلى أطراف سجنه واسمه ، ومن هناك بعث رساله إلى ابن مدرار « يذكر أنه إنما قدم الحاجة ولم يقدم لحرب ، ووعدته الجليل من نفسه والبر والالتزام ، وأكد ذلك وبالغ فيه »^(٣) . ولكن ابن مدرار قتل هؤلاء الرسل ، وأصر على العدا . فاضطر أبو عبد الله الشيعي إلى اقتحام المدينة ، وهرب ابن مدرار وأهله ، وتم اطلاق سراح الإمام المهدي وابنه القائم في يوم الأحد لسبع خلون من ذى الحجة سنة ٢٩٦ هـ^(٤) .

وصف كل من القاضي النعمان وابن الأثير والمقريزي يوم اطلاق سراح الإمام المهدي وصفاً معبراً ، ورسوموا صورة للاحتفال تدل دلالة واضحة على اخلاص ووفاء أبي عبد الله الشيعي للإمام . فقال المقريزي^(٥) : « وقد انتشر

(١) المقريزي : المعاني الخفا - ١ ص ٦٥

(٢) المصدر السابق .

(٣) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٨٢٨ . تم القبض على ابن مدرار وأمر أبو عبد الله بضربه بالسياط والعلاص به بمجناسه ، وصادر أمواله ، ثم قتله بعد ذلك .

(٤) ابن الأثير : السكامل - ٨ ص ١٧ .

(٥) المعاني الخفا - ١ ص ٦٥ .

في الناس سرور عظيم . كادت تذهب منه عقولهم » . ويصف النعمان ^(١) هذا الاحتفال ، فيقول أن سبجلماسة شهدت موكبا عظيما ، تقدمه الإمام ، وولى عهده القائم ، ومشى أبو عبيد الله بين يدي الإمام ، وهو يقول للناس « هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون » ^(٢) . وحمد الله عز وجل وشكره وبكى من شدة الفرح . وقدمت القبائل على المهدي تعين له ولأهله ، ولذا خلعت أقامته في سبجلماسة أربعين يوما . وكتب أبو عبد الله إلى أهالي إفريقية كتابا يخبرهم فيه بآباء اطلاق سراح الإمام .

وتغيرت الصورة السياسية في بلاد المغرب ، فقد كان من أبرز قدوم الإمام المهدي إليها ، أن « زال ملك بني الأغلب من إفريقية ، وملك بني مدرار من سبجلماسة ، وملك بني رستم من تاهرت » ^(٣) .

وينفى أستاذنا للرحوم الدكتور حسن إبراهيم ما ثارت من إشاعات حول اطلاق سراح الإمام ، فقد ذهب البعض إلى أن أبا عبد الله الشيعي قد علم بقتل الإمام ، فجاء برجل يهودي أظهره للناس باسم المهدي . ثم يقول : وليت شعري أين كان أبو القاسم (القائم) الذي ولي الخلافة بعد أبيه ؟ ولماذا لم يتولاهما في ذلك الحين ، وقد كان في سنن يستطيع معها الاضطلاع بأعباء الحكم ؟ فقد زحف نحو مصر لفتحها سنة ٣٠١ هـ أي بعد أربع سنوات ^(٤) . ونحن نرى أن هذه الإشاعات هي حلقة في سلسلة الشكوك التي أحاطت بنسب الخلفاء الفاطميين . فهناك من المؤرخين « السنيين » يرى انتساب

(١) افتتاح المعجزة ص ٢٣٩ .

(٢) كان أبو عبد الله الشيعي يطلق على من اعتنقوا التشيع وأهلنوا ولاعهم للإمام المهدي وانضم إلى المجتمع الشيعي اسم المؤمنين .

(٣) اتعاظ الخلفاء ص ١٠٦ .

(٤) الدولة الفاطمية ص ٥٥ .

عبيد الله المهدي إلى الداعية ميمون القداح وهناك من المؤرخين الأكثر اعتدالا ،
فينسبون عبيد الله إلى موسى الكاظم ، لا إلى إسماعيل بن جعفر . وقد ثار
جدال وحوار ، على مر العصور التاريخية ، حول نسب الفاطميين ، شارك
فيه مؤرخون شيعيون وسنيون ، وأدلى المستشرقون أيضا بدلوهم في هذا
الموضوع ، مثل دى سامى ودوزى ودى غوية ووستنفلد ونيكلسون وغيرهم .
ولا مجال هنا لذكر الآراء المختلفة المتضاربة في هذا الموضوع القديم الشائك
الطويل ، الذى لم يتفق المؤرخون فيه ، حتى الآن ، على رأى واحد ^(١) .
والذى يهمنا نحن أن الدولة الفاطمية قد أصبحت حقيقة واضحة ، وأن
أبا عبدالله الشيعى هو مؤسس هذه الدولة الفاطمية ، بعد جهود كثيرة وكفاح
طويل . وأبو عبدالله هو داعية الإمام عبيد الله ، وهو يشارك ملايين الشيعة
حينئذ إيمانهم بصحة نسب المهدي إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق .
وقد كان استنار الأئمة من عوامل إثارة مثل هذه الشكوك التى أثارها
أعداء الشيعة في ذلك الوقت ، ورددها بعض المؤرخين المحدثين . وقد وضع
أبو عبدالله الشيعى إيمانه بصحة نسب المهدي موضع التنفيذ فكانت جهوده
التي شهدناها من أجل قيام دولته الفاطمية .

ومهما كان الرأى ، فقد بدأ عهد جديد ، وقامت الدولة الفاطمية في
إفريقية ، وبدأ ذكر إسم الإمام المهدي في خطبة الجمعة كأمير للمؤمنين . وولى
الإمام السكتاميين أعمال إفريقية « ودون الدواوين ، وجبا الأموال ، واستقرت
قدمه ، ودانت له أهل البلاد ، واستعمل العمال عليها » ^(٢) .

(١) يقول الدكتور حسن إبراهيم (الدولة الفاطمية ص ٥٧) « أن بحث المحدثين من المؤرخين
لهذا الموضوع لم يسفر عن نتيجة حاسمة . ويقول الدكتور جمال الشيال (مقدمة كتاب اعماظ
الحنفا - ١ ص ٣٩) : مشكلة النسب مشكلة قديمة حديثة شغلت كل من تعرضوا لتاريخ الفاطميين
من عرب ومستعربين .

(٢) افتتاح الدهوة ص ٢٣٢ .

٩ — مصرع أبي عبدالله

ثم كانت بداية النهاية ، وبدأت بوادر خاتمة صحيفة حياة ذلك المجاهد الكبير ، الذى كرس حياته وجهوده وعبقريته لخدمة الدعوة الإسماعيلية وتأسيس الدولة الفاطمية ، التى كانت فى مقدمة الدول الإسلامية .

وشاءت الأقدار أن تكون نهاية حياة أبي عبدالله الشيعى ، على يد الإمام عبيدالله المهدي ، لقد منح أبو عبدالله الحياة للدولة الفاطمية ، ولكنه فقد حياته على يد أول خلفائها . فعجبا لمفارقات القدر !!!

ويجمع المؤرخون الأقدمون على أن أبا العباس ، أخا أبي عبدالله الشيعى ، كان العامل الرئيسى فى توتر العلاقات بين الإمام المهدي ورجله الأول أبي عبدالله ، وتطورت الأحداث سريعاً ، فاقبلت المودة إلى عداوة وتحولت الثقة إلى ريبة ، وانتهى الأمر بقرار للإمام بوضع حد لحياة أبي عبدالله الشيعى .

كان أبو العباس هو الأخ الأكبر لأبي عبدالله الشيعى . وقد قارن القاضى النعمان ^(١) بين الأخوين ، فقال أن أبا العباس « كان أنفذ وأحد ذهننا وأكثر تفنناً فى العلوم وأسبق منه سابقة ، وأبو عبدالله أرجح وزناً وأورع من أبي العباس . وكان أبو عبدالله يعظمه ، وإذا دخل عليه أى أبو العباس - قام إليه على قدميه وظل قائماً حتى يأذن له فى الجلوس ، وإذا دخل هو - أى أبو عبدالله - عليه قبل يده ، ووقف حتى يأمره فيجلس » .

(١) افتتاح الدعوة ص ٢٣٢ .

وهكذا كان أبو عبد الله يبالغ في تعظيم أخيه أبي العباس وفي إجلاله ، نتيجة تقدمه عليه في السن . وهذا الاحترام الفائق هو الذي جعل أبا عبد الله بعد ذلك لا يضع حدا حين تخطى أخوه أبو العباس حدوده المرسومة ، وحين تمادى في اتجاهات لا تتفق مع صالح الدعوة والدولة . وخاصة أن الأوضاع السياسية قد اختلفت وتغيرت فقد مضت سنوات طويلة كان فيها أبو عبد الله الشيعي هو الرجل الأول في المغرب ، فكان أبو العباس يستطيع أن يستمد سلطاته الواسعة من نفوذ أخيه ، واحترام الشعب الشيعي له ، معتمدا على ثقة أخيه فيه واحترامه له . أما الآن ، فقد قامت دولة فاطمية ، وحكومة مسئولة تولى أمورها خليفة هو إمام المؤمنين وأميرهم ، وهو حريص على أن يمارس سلطاته المشروعة فكان لا بد من الصدام بين أصحاب السلطة في عهدين متتاليين ، العهد السابق لقدم الإمام المهدي ، وعهد قيام الحكومة الفاطمية برئاسة الخليفة المهدي .

وكان أبو العباس قد وصل إلى درجة كبيرة من السلطة والنفوذ قبل قدوم المهدي . فكان أهل كتامة يمسون تعظيم أبي عبد الله لأخيه أبي العباس ، ولذا لا غرو أن « عظم في أعينهم » أيضا^(١) .

كما استخلف أبو عبد الله أخاه أبا العباس ورجله أبا زكي حين رحل على رأس الجيش لإطلاق سراح الإمام المهدي من سجن سجلماسة وقد غاب أبو عبد الله أربعين يوماً ، مارس فيها أخوه أبو العباس جميع السلطات ، وتوطد خلالها نفوذه^(٢) .

(١) افتتاح الدعوة ص ٢٢٢ .

(٢) المقرئى : انماط الخلفاء ح ١ ص ٦٦ .

ونحن لا نشك مطلقاً في إخلاص أبي عبد الله للإمام المهدي ونؤكده ووفاءه وإخلاصه ومودته وتقديره للإمام.. لقد كان أبو عبد الله طوال حياته يتصف بالوفاء والصفاء والنقاء ، وعلى خلق كريم ، وتواضع شديد.. وقد بدت هذه الصفات كلها في معاملته لسائر الناس ، عظيمهم وحقييرهم ، غنيهم وفقيرهم^(١) . وتجلى إخلاص ووفاء أبي عبد الله الشيعي للإمام في كل الجهود التي بذلها من أجل التمهيد للإمام للقدوم إلى بلاد المغرب وتولي الخلافة فيها . لقد نجح أبو عبد الله ، بجهود فردية ، احتواء أهالي إفريقية في مجتمعه الشيعي.. وهو الذي بعث يستدعي الإمام من سامية بالشام . وهو الذي خرج على رأس جيشه لإطلاق سراح الإمام من سجنه في سلاجسة . وقد رأينا مدى قلق أبي عبد الله على الإمام وهو في سجنه ، وخوفه من أن يقدم الوالي ابن مسدرار على قتله . كما شهدنا فرحة أبي عبد الله لنجاته واستعادته حريته ، ورأينا أبا عبد الله في موكب الإمام في شوارع سجلماسة ، ماشياً بين يديه ، يبشر الأهالي بالإمام .

ولذا فنحن نوافق المؤرخين الأقدمين الذين يجعلون غرور أبي العباس هو السبب الوحيد الذي أدى إلى الواقعة بين الخليفة المهدي وأبي عبد الله . وغذى الحاسدون والحاقدون هذه الواقعة ، فتضخمات وتطورت ، وإنتهت بأمر من الخليفة المهدي بقتل أبي عبد الله .

وضح المقرئ^(٢) حقيقة مقتل أبي عبد الله الشيعي ، فقال : « وكان سبب قتله ، أن المهدي لما استقامت له البلاد بأمر الأمور بنفسه ، وكف يد أبي عبد الله ويد أخيه أبي العباس ، فدخل أبا العباس الحسد ، وعظم عليه

(١) النعمان : افتتاح الدعوة ص ١٢٦ .

(٢) انماط الحنفا ص ١٠٠ ص ٦٧ .

للفطام من الأمر والنهي ، والأخذ والعطاء ، فأقبل يزري على المهدي في مجلس أخيه ، ويتكلم فيه ، وأخوه ينهاه ، ولا يزيد إلا لجاجا .

وهذا النص الذي نقلناه عن المترزي ، واضح وصريح ونحن نعتقد أن الإمام المهدي كان على حق في ممارسة الأمور بنفسه ، فهو حقه الطبيعي كخليفة وأمير المؤمنين والدولة الفاطمية لا زالت في المهدي وفي حاجة إلى رعاية وعناية ، كما كانت تواجه كثيرا من الأعداء والخصوم . وإذا كان الخليفة الجديد قد كف يد أبي عبد الله عن بعض المهام ، فإننا نعتقد أن ذلك موجهاً . بالأكثر إلى أبي العباس ، وقد كان أبو العباس يستمد سلطانه من من أخيه . كلما أننا نلاحظ أن أبا العباس كان قد وصل إلى مرحلة الغرور والاستعلاء التي يخشى الخليفة امتدادها واتساعها وكان الخليفة يعلم لإجلال أبي عبد الله لأخيه ، وتعظيم الناس لأبي العباس . وكان أبو العباس — في الحقيقة — قد أصبح قبل قدوم المهدي ، الرجل الأول في بلاد المغرب . وأدرك أبو العباس أن تولى الإمام المهدي الخلافة أصبح يهدد سلطانه القديمة التي مارسها سنوات طويلة بتفويض من أخيه عبد الله .

ونحن أيضا لا نشك في أن كلا من الإمام المهدي وأبي عبد الله الشيعي كان يبادل الآخر المودة والإحترام . ولكن غرور وحقد أبي العباس أفسدا ما بين الرجلين . وقد حمل أبو العباس جاهدا في إيغار صدر أخيه أبي عبد الله على الخليفة الإمام ، فكان يقول له : « ملكك أمرا وانطاع لك ، فجئت بمن أزالك عنه وأخرجك منه وتنقصك واضطهدك ، وكان أقل الواجب لك أن يدعك وما كنت عليه فتسكون الأمر والنهي ، ويشغل إن شاء بشغل نفسه دون أن يهتم بك أو يقيمك من الدل في مثل هذا المقام ^(١) » .

وفي الحقيقة ، أبدى أبو عبدالله استنكاره لمقال أخيه ، ولامه عليه ، ولكن أبا العباس مضى في سياسة الوقعية بين الرجلين ، فقال للخليفة الإمام : « لو كنت تجلس في قصرك وتتركني مع كتامة أمرهم وأنهم ، لأنني أعرف ببادتهم ، لكان ذلك أهيب لك في أعين الناس » . وهكذا لم يشأ أبو العباس أن يكون شريكاً للخليفة في سلطته ، بل أراد أن يكون بديلاً له . وأبدى الخليفة حملاً وتسامحاً ، فقد رد على أبي العباس رداً لطيفاً ، ولكنه « أسر ذلك في نفسه »^(١) .

وتنادى أبو العباس ، فعمد إلى إثارة مشاعر رجالات الدولة ضد الخليفة ، فقد توجه بالحديث إلى الدعاة والمشايخ فقال : « ما جازكم على ما فعلتم ، بل أخذ هو الأموال من إيلجان ولم يقسمها فيكم »^(٢) . وعلم الخليفة بهذا التحريض ، فأثر سياسة الحكمة والتسامح مرة أخرى ، فتغافل عنه .

وانطلق أبو العباس في الإساءة إلى الخليفة الإمام شخصياً ، فالتقى ثانية بالدعاة والمشايخ « فطعن لهم في الإمامة وأدخل فيها الشبهة »^(٣) . ثم قال : « إن هذا ليس بالذي كننا نعتقد طاعته وندعو إليه ، لأن المهدي يأتي بالآيات الباهرة » .

وفي الحقيقة ، كان أبو العباس يهدم البناء الشاهق الذي شيده أخوه أبو عبدالله طوال سنوات عديدة ، ونجح أبو العباس في إثارة الشكوك والريبة ، فقد أثرت أقواله « في قلوب كثير من الناس ، حتى إن بعضهم من

(١) المقرئ : انماخذ الحنفية - ١ ص ٦٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) التعمان : افتتاح الدعوة ص ٢٦٩ .

كتامة واجه المهدي بذلك وقال : إن كنت المهدي فأظهر لنا آية ، فقد شككنا فيك ^(١)

نقد صبر الخليفة ، وكان بالأمس يتغاضى ويتغافل . ولكن أبا العباس الآن قد شن ثورة علنية ضد الخليفة ، وهدم أساس نظام الإمامة الذي قامت عليه الخلافة الفاطمية . ولذا رأى الإمام المهدي أن يضع حدا لهذا العداء السافر ، وقد بدت بوادر ثوره شعبية ، وأصبح الأمر مسألة مصيرية ، ترتبط بمصير الإمام ، وفلسفة الإمامة ، ومستقبل الدولة الفاطمية .

ولذا قرر الخليفة الخلاص من أبي العباس ، ومن أبي عبدالله أيضاً . وقد كان من العسير الإبقاء على حياه أبي عبدالله ، فهو لن يسكت على قتل أخيه ، فهناك صلات الدم ، ورابطة الأخوة ، فضلا عن تعظيم أبي عبدالله لأخيه .

وعلم أبو عبدالله بعزم الخليفة ، وبدأ سباق بين الرجلين ، وأصبح كل منهما يعمل على سبق الآخر في الفتك به . وعقد أبو عبدالله اجتماعا في دار أبي زاكي تمام بن معارك ، وكان من كبار أعوانه ، « فمقدوا العقود ، وأجمعوا الآراء ، واحتالوا على أن يفتكوا بالمهدي » ^(٢) . وبدأ تنفيذ المؤامرة ، وأراد بعض السكتاميين قتل الخليفة عدة مرات « فلم يجسروا على قتله » . ورأى المهدي تشتيت شمل أنصار أبي عبدالله ، فولى زعيمهم أبا زاكي حكم طرابلس ، وأمر عاملها سرا بقتل أبي زاكي عند وصوله ^(٣) .

ثم رأى المهدي أن يجعل بقتل الأخوين ، فتم قتل أبي العباس ، ثم بعث بجاعة إلى قصر أبي عبدالله لاغتياه . وحاول أبو عبدالله نهيهم عما قدموا لأجله

(١) المقرئزي : انما ظ الحنفا ح ص ٦٧ .

(٢) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٢٦٣ .

(٣) المقرئزي : انما ظ الحنفا ح ص ٦٨ .

فقال لهم : لا تفعلوا . فقالوا له : إن الذي أمرتنا بطاعته أمرنا يقتلك . ولقى أبو عبدالله ، وأبو العباس ، وأبو زاكى حتفهم في يوم الاثنين في منتصف جمادى الآخرة سنة ٢٩٨ هـ . وكان مصرع الأخوين في مدينة رقادة . وصلى المهدي على جثمان أبي عبدالله ، وقال : رحمك الله أبا عبدالله وجزاك خيرا بجميل سعيك ^(١) .

وترتب على مصرع أبي عبدالله اضطراب أحوال الدولة الفاطمية ، فقد ثارت فتنة ، وكاد يحدث صدام عسكري ، فخرج المهدي بنفسه إلى هؤلاء الثوار « وأمن الناس فسكتوا » ثم تتبعهم حتى قتلهم ^(٢) .

وثارت فتنة ثانية بين كتامة وأهل القيروان ، قتل فيها خاق كثير « فخرج المهدي ، وسكن الفتنة ، وكف الدعاة من طلب التشيع من العامة » ^(٣) ويطلق القاضي النعمان ^(٤) على هذه الفتنة ، تعبير « فتنة النفاق » .

قبض المهدي على رؤوس الفتنة تقتلهم صبرا على باب رقادة ، ونصب رؤوسهم على الباب . وتبع المهدي أنصار أبي عبد الله في كل البلاد بالقتل أو السجن . وظل هؤلاء المسجونين في حبسهم حتى أطلق سراحهم الخليفة المنصور ، ثالت الخلفاء الفاطميين ، فوصلهم وسيرهم إلى مصر . وقدم شيوخ القيروان على المهدي ، يعتذرون له فأعرض عنهم ، وقتل بعضهم ، ممن ثبت إداثته .

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٦٧ — ٦٨ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٦٨ ، ابن خضاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) انماظر المنها ج ١ ص ٦٨ .

(٤) افتتاح الدعوة ص ٢٧٠ .

وأراد المهدي ندعيم الدولة ، فعهد بولاية العهد لأبنه أبي القاسم (القاسم)
وسماه « ولي عهد المسلمين » . ولكن مسرع أبي عبد الله لم يكن سحابة
صيف مرت بسماء المغرب فقد رجع الكنانيون إلى بلادهم ، حيث أقاموا طفلاً
وذهبوا إلى أنه « المهدي » وأنه يوحى إليه ، كما زعموا أن أبا عبد الله لم يمت
فبعث المهدي إليهم ابنه أبا القاسم ، فقاتلهم وهزمهم ، وقتل ذلك الطفل
وكثيراً من أتباعه^(١) . وانتشرت الاضطرابات في الدولة ، فثار أهالي طرابلس
وصقلية ، ولكن المهدي نجح في القضاء على الفتن .

وطويت صفحة أبي عبد الله الشيعي ، ولكن البذر الذي وضعه قد أነح
وأثمر ، وظل الفرس الفاطمي قائماً في بلاد المغرب ، وبدأت الدولة الفاطمية
تكتب صفحات كثيرة مجيدة من صفحات التاريخ .

(١) القرظي : انظر الحنفيا - ١ ص ٦٨ . ويذكر النصفان (المساجد الموهبة ص ٢٢٣)
أن هؤلاء الكنانيين أباحوا الزنا والمخامرة .

١٠ — بين أبي عبد الله الشيعي

وأبي مسلم الخراساني

(دراسة مقارنة)

نظرية (عودة التاريخ) من النظريات التاريخية التي تحول، لبعض المؤرخين المجددين إبرازها، والبحث عن أمثلة تطبيقية عملية لها، حتى أن التاريخ حقا يعيد نفسه .

ومن هؤلاء المؤرخين المحدثين أستاذنا المرحوم الدكتور حسن إبراهيم حسن^(١) الذي قال: والتاريخ يعيد نفسه كما يقولون، فقد كانت خاتمة أبي عبد الله الشيعي هي خاتمة أبي مسلم الخراساني، مع ما عرف من غيرته وانتصاره للدعوة العباسية .

ونحن نرى أن الظاهر وإن كان واحدا، إلا أن الجوهر يختلف تماما . فأبو عبد الله وأبو مسلم يتفقان في أن كلا منهما ساهم مساهمة رئيسية إيجابية في إنشاء دولة عظيمة وخلافة كبرى . ويتفق الرجلان أيضا في المصير وفي خاتمة حياتهما ، فقد لقي كل منهما حتفه على يد خليفة من تلك الدولة التي قامت على كتفيه فلقى أبو مسلم حتفه على يد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور في سنة ١٣٧ هـ^(٢) ، وكانت نهاية حياة أبي عبد الله على يد الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي في جمادى الآخرة سنة ٢٩٨ هـ^(٣) .

(١) الدولة الفاطمية ص ٥٦ ، تاريخ الاسلام ص ٢ ص ٩٢

(٢) الطبري ص ٦ ص ١٢٧ وما بعدها .

(٣) المفريزي : أمماظ الحنفا ص ١ ص ٦٨ .

ولكن الرجلين يختلفان تماماً في ظروف ظهورهما على مسرح الأحداث،
ويختلفان في الأصل والنشأة وفجر الحياة، وفي إعدادها للقيام بالمهمتين العظيمة
اللتين قاما بهما كما يختلفان في النزعة، وفي الاتجاه النيامي، وفي أخلاقهما
وصفاتهما الشخصية.

لقد كانت شخصية أبي مسلم على نقىض تام من شخصية أبي عبدالله التي
شهدنا معالمها في هذا البحث. فقد أصبح أبو مسلم رأس الشعوبية الموجهة ضد
العرب، ورأس الزندقة للموجهة ضد الإسلام. وقد كانت كل جهوده ظاهرياً
لإقامة الدولة العباسية، ولكنه كان في قرار نفسه يهدف إلى بعث الدولة
الفارسية القديمة في ثوب إسلامي جديد، بحيث يصبح الموالي الفرس في هذه
الدولة هم أصحاب السلطة الحقيقية. وقد اعتمد أبو مسلم في خطواته على الموالي
الذين كان كثير منهم أعداء ألداء للإسلام^(١). كما أبدى أبو مسلم روحاً شعوبية
واضحة، وقتل آلافاً من العرب في خراسان^(٢). وامتزجت الدعوة العباسية
بتيارات الشعوبية وبالتعاليم المجوسية الإلحادية، وبالتعاليم الفرق المتطرفة^(٣).

واعتمد أبو مسلم في جهوده من أجل الدولة العباسية على مهارته العسكرية
وحدها، فهو رجل حرب وقتال، وليس رجل سياسة ودهاء. وهو يعتمد في
مجاهده العسكري على الإرهاب وسفك الدماء، ليثير رعب أعدائه فيساقطون
على أقدامه، وتركزت جهود أبي مسلم في حشد قوات عسكرية ضخمة، تألف
جندها من الساخطين على الحكم الأموي، نتيجة دوافع قومية أو سياسية

(١) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٢٨ .

(٢) روى الطبري (٦٠ ص ١٣٧) أن أبا مسلم « قتل في دولة وحرابه ستمائة
ألف سباً » .

(٣) فلهورن : الدولة العربية ص ٤٧٧ .

دينية . فقد انضم إليه الموالي الفرس الذين سخطوا على الأمويين سياسة اضطهادهم للعناصر الأجنبية ، وبعض المجوس المناقذين المتظاهرين بالإسلام ويريدون السكيدله ، إلى جانب بعض الموالين لفرق سياسية ومذهبية تعارض الدولة الأموية ، وعناصر أخرى طامعة وحاكمة . فأصبح جيش أبي مسلم خليطاً عجيباً لا يجمعه سوى الرغبة في إسقاط الدولة الأموية . ونجح أبو مسلم بهذا الجيش في هزيمة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في موقعة الزاب ، ثم تبعه إلى مصر حيث قتله ، ثم قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ ^(١) .

أما أبو عبد الله الشيعي فهو رجل دعوة ، وسياسة ، ودهاء . وكان العرب الأقدمون يستخدمون لفظ (داهية) ^(٢) مراد فاللفظ (عبقرى) ، ووصفه ابن الأثير ^(٣) بأنه « على علم وفهم ودهاء ومكر » ، وقال عنه كل من المقرئ ^(٤) وابن خلكان ^(٥) أنه كان « من الرجال الدهاء الخبيرين بما يصنعون » . وبدأ أبو عبد الله حياته - كما رأينا - محتسباً ، وكان لا يتولى هذا المنصب إلا من هم على دين وخلق وكفاءة . واشتهر أبو عبد الله في فجر حياته بالتدين ولزهد حتى سموه « الصوفي » . وأبو عبد الله - قبل كل شيء هو داعية علوي ، وليس قائداً عسكرياً ، رغم انتصاراته العسكرية العديدة وأقام أبو عبد الله صرح الدولة الفاطمية على أساس عبقرية وذكائه ولباقته وعلمه . واختار طريق الدعوة والإرشاد ، وسلك الطريق السلمي غالباً . ولا نجد في أخبار

(١) الطبري ج ٥ ص ١٥٢ وما بعدها .

(٢) قال العرب قديماً دعاء العرب أربعة : سارية بن أبي سفيان ، وعمر بن الخطاب ، وزيد بن أبيه ، والخيرة بن شهبة .

(٣) الكامل ج ٨ ص ٣١ .

(٤) اتعاظ الخلفاء ج ١ ص ٦٨ .

(٥) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢ .

حروبه أثراً لبطش أو إسراف في سفك الدماء ولا نجد أيضاً في أخبار مجتمعه الشيعي أى عصبية عنصرية، فقد ساوى بين البربر والعرب في الحقوق والواجبات وعمل على إذابة كل الغوارق في بوتقة « دار الهجرة » فالجميع سواء ما دام . يجمعهم ولاء للإمام العلوي . والعرب والبربر جميعاً في مجتمعه هم « المؤمنون » . أما « الكافرين » فهم أعداء الإمام ، سواء أكانوا عرباً أم بربراً .

أقام أبو سلم الخرساني كل أمجاد على انتصاره العسكري في موقعه الزاب . بينما كان أبو عبد الله ، هو الداعية الحاذق ، والمصلح الإجتماعي ، والزعيم الشعبي ورجل السياسة والإدارة ، والمثل الأعلى لمجتمعه في الدين والأخلاق^(١)

وكانت مهام أبي عبد الله أكثر صعوبة ووعورة من مهام أبي مسلم . فالدولة الأموية كانت في أواخر أيامها ، تحتضر وتلفظ أنفاسها ، إذ توالى عليها معاول الهدم^(٢) ، كثورات الشيعة والخوارج والموالي ، فضلا عن انقسام الأمويين على أنفسهم وتنافسهم على طلب الخلافة . ولذا عجل أبو مسلم بنهايتها ، بعد أن أصابها التصدع والانحلال ، وأوشكت على السقوط والانهيار^(٣) . وكان أبو مسلم رجلاً من رجال كثيرين اعتمد عليهم العباسيون في دعوتهم ، فكانت هناك تنظيمات كبيرة دقيقة لهذه الدعوة ، أقامها

(١) رغم انتقاد القاضي النعمان لوقف أبي عبد الله من المهدي ، فهو يشيد دائماً بأبي عبد الله ، فقد ظل دائماً محتفظاً بما كان عليه « من لباس الدون من الثياب الحسن » ، و« من الأمن في المغرب حتى « سكنت الدماء وأمنت السبل » ودعا إلى الأخلاق الفاضلة » فأمر بقطع شرب السكر وكل ما ظهر من المنكر » ، (ص ٢١٥) .

(٢) أنظر عوامل سقوط الدولة الأموية في كتابنا (الاسلامون والخلافة) مطبعة بيروت سنة ١٩٧

(٣) في نص للمؤرخ ابن طباطبغا (الغري ص ٢٩) ينص على أن الظروف كلها كانت مهيأة لقيام الدولة العباسية ، فذكر منه : « لما قدر الله عز وجل انتقال الملك إلى بني العباس خيالهم جميع الأسباب ... ولما قدر الله تعالى خذلان مروان وانقراض ملكه بنو أمية ، فتكلم مروان خليفة مباحياً ، ودمع الجنود والأموال والسلاح والدنيا بأجمعها عنده ، والناس يتفرقون عنه ، وأمره يذهب ، وحيله يضطرب ، فما زال يضطلع حتى هزم وقفل ، فتماعى الله » .

العباسيون طوال ٣٢ سنة ، في معظم الأمصار الإسلامية . وإذا كان نشاط أبي مسلم قد تركز في خراسان ، فقد مهد الأمور له فيها دعاة عباسيون عديدون من قبل ، فقد تولى أمر الدعوة العباسية في خراسان أبو عكرمة السراج ، وكان له سبعون داعية من بينهم اثنا عشر نقيباً . وكانت خراسان مهدية تماماً للدعوة العباسية ، ولذا اختارها العباسيون مهد حركتهم المعارضة للأمويين . ولذا فإن أبا مسلم قد جنى ثمار جهود الكثيرين ممن سبقوه إلى خراسان .

هذا ، بينما أقام أبو عبد الله بناء الدولة الفاطمية بجهود الفردية ، بغير مال أو رجال . قد قدم أبو عبد الله إلى المغرب وحيداً فريداً ، لا عون له سوى هؤلاء نفر من حجاج كتامة الذين نجح بذكائه وكياسته أن يهرمهم ويستميلهم ، دون أن يخبرهم بحقيقة أمره ودعوته . وزحف أبو عبد الله في خطوات وثيدة بطيئة ، في طريقه الوعر ، وكأنه ينحت في صخر ، حتى يذر بذوره . أما ما قام به الحارثان ، الداعيتان أبو سفيان والحلواني ، فقد عفا الزمان ، بعد نحو قرن ونصف قرن ، على جهودهما . فقد كان على أبي عبد الله - في الحقيقة - أن يبدأ من جديد ، ومن أول الطريق .

لقد أعلن أبو مسلم الخراساني العصيان على الخليفة أبي جعفر المنصور ، علناً وصراحة ، وأراد أن يكون الحاكم الفعلي للجناح الشرقي من الدولة العباسية ، وتعد دائماً الاستهانة بالخليفة والتصغير من شأنه^(١) أما أبو عبد الله فقد ظل دائماً على إخلاصه وولائه ووفائه للإمام عبيد الله المهدي . ولولا غرور

(١) أنظر تفاصيل العداوة بين أبي مسلم والمنصور في تاريخ البقاعي ج ٢ ص ٤٩١ ، تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٢٧ وما بعدها ، ومروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٣٠٢ وما بعدها .

أخيه أبي العباس وسياسته الخرقاء، لاستمرار التقدير والحب متبادلين بين الإمام
ومضوء دولته أبي عبد الله . ولكن الأقدار هي التي كانت توجه أحداث
التاريخ .

صبر الإمام عبيد الله المهدي ، وتغافل عن عصيان أبي العباس ، فهو يقدر
جهود أخيه أبي عبد الله حق قدرها . ولكن أبا جعفر المنصور كان يفيض أبا
مسلم ، ويمكن له كراهية شخصية دائماً ، تدفعه إلى الرغبة في الخلاص منه .
فحين كان المنصور ولياً للعهد ، استمر على تحريضه لأخيه الخليفة العباسي الأول
أبي العباس على قتل أبي مسلم^(١) . ولكن هذا الخليفة كان يدرك خطورة
الإقدام على اغتياله فكان يرفض دائماً . ولما تولى المنصور الخلافة نفث عن
أحقاده ، فكان قتل أبي مسلم في قصره ، وفي مجلسه ، وببده^(٢) . ولكن المهدي
لم يأمر بقتل أبي عبد الله إلا مضطراً ، وبعد أن نفذ صبره وخاف على الدولة
من الاضطراب والفتنة ، وكان مصرع أبي عبد الله في قصره . وأبدى المهدي
تسامحاً حين خرج ليصلي على جثمان أبي عبد الله .

وكان لمصرع الرجلين العظيمين ، آثاره الخطيرة في الدولة . فقد ثار أنباع
أبي مسلم غضباً وسخطاً على مقتله ، وظهرت حركة ثورية مجوسية تزعمها
(سنياذ) المجوسي ، تطالب بالتأر سنة ١٣٧ هـ وهب مائة ألف من أنصار
أبي مسلم يتظاهرون بالسخط لمصرعه ، وهم في الحقيقة يريدون الصكيد للإسلام
والعروبة ، حتى أنهم نادوا بإنهاء سلطان العرب . وأعلنوا عن عزمهم على

(١) كان المنصور يقول لأخيه أبي العباس : « ألعني واقتل أبا مسلم فوافقه إن في رأسه
لقدرة » . (تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٢٤)

(٢) ضرب المنصور أبا مسلم ببده ، ثم أجهز رجاله عليه .

الزحف إلى بلاد الحجاز لهدم الكعبة . ونجح المنصور ، بعد جهود كثيرة في القضاء على هذه الحركة الخطيرة ، التي تثبت ما قلناه من أن أبا مسلم كان رمز الشموعية والزندقة^(١) وما لبثت أن قامت حركة أخرى شعوبية مجوسية تزعمها استحق التركي ، أحد رجال أبي مسلم ، فزعم أن أبا مسلم حي لم يمت ، وأنه سيعود لينشر العدل والأمن ، ولذا أصبح في نظرهم (المهدي المنتظر) وحول بعضهم الإمامة إلى ابنته فاطمة .

وهذه الاضطرابات ، وما صاحبها من أفكار إلحادية خرافية ، تشبه ما ساد بلاد كتامة بعد مصروع أبي عبد الله ، فقد أقام الكتاميون - كما رأينا طغلا زعموا أنه (المهدي) وأنه يوحى إليه ، كما زعموا أن أبا عبد الله حي ولم يمت^(٢) وظهرت بين الكتامين أفكار هدامة فقد أباحوا الزنا والمحارم^(٣) ، وبذلك هدموا « المدينة الفاضلة » التي أقامها أبو عبد الله في « دار الهجرة » . ما أشبه الليلة بالبارحة . ولكن ... هل يعيد التاريخ نفسه حقيقة ؟ ... وسأترك الإجابة للتاريخ .

* * *

وأخيراً ، لا نجد عبارة نختتم بها بحثنا هذا ، أفضل من تلك العبارة التي قالها الخليفة عبيد الله المهدي حين كان يصلي على جثمان أبي عبد الله الشيعي ، وهي : « رحمتك الله أبا عبد الله ، وجزاك خيراً بجميل سمعك » .

(١) الطبري ٦ - ص ١٤٠ وما بعدها .

(٢) المقرئ : انما ظهروا ١ - ص ٦٨ .

(٣) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٩٢ .

مصادر البحث

وقد ورد ذكرها جميعا في حواشى البحث

ابن الأثير : (٦٣٠ هـ)

— الكامل فى التاريخ (بولاق ، القاهرة ١٣٧٤ هـ)

الأصفهاني : (٣٥٦ هـ)

— مقاتل الطالبين (طبعة القاهرة)

البغدادى : (+ ٤٢٩ هـ)

— الفرق بين الفرق (القاهرة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م)

جولد تسيهر : (اجناس)

— العقيدة والشريعة فى الإسلام ، ترجمة على حسن عبد القادر
وآخرين (القاهرة ١٩٤٦) .

ابن حزم : (+ ٤٥٦ هـ)

— الفصل فى الملل والأهواء والنحل (القاهرة ١٣١٧ هـ) .

حسن ابراهيم حسن : (الدكتور) .

— تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨)

— عميد الله المهدي ، ^{عليه السلام} بالاشتراك مع الدكتور طه شرف

(القاهرة ١٩٤٧) .

حسين بن فيض الهمداني اليعبري:

الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن (٢٦٨ - ٦٢٦ هـ) ،
بالاشتراك مع الدكتور حسن سليمان محمود (القاهرة ١٩٥٥) .

الحامدي اليميني : (أوساط القرن ٥ هـ)

— كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة (القاهرة ١٩٣٩) .

ابن خلدون : (+ ٨٠٧ هـ)

— مقدمة ابن خلدون (المطبعة البهية المصرية ، القاهرة)

— العبر وديوان المبتدأ والخبر (بولاق ، القاهرة ١٢٨٤ هـ)

ابن خلكان : (+ ٦٨١ هـ)

— وفيات الأعيان (القاهرة ١٩٤٨) .

الشهرستاني : (+ ٥٤٨ هـ)

الملل والنحل ، (القاهرة ١٩٤٨)

ابن طباطبا (٧٠٩ هـ)

— الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية
(القاهرة ١٣٤٠ هـ) .

الطبري : (+ ٣١٠ هـ)

— تاريخ الأمم والملوك (القاهرة ١٩٤٩)

عارف تامر :

— القرامطة ، أصلهم ونشأتهم ، وتاريخهم وحروبهم (بيروت ١٩٦٤)

ابن عبد ربه : (٤٣٩ هـ)

— العقد الفريد (القاهرة ١٩٤٨) .

ابن عذارى : (أواخر القرن ٦ هـ)

— البيان المغرب في أخبار المغرب (دار الثقافة ، بيروت)

عريب بن سعد : (٣٦٦ هـ)

— صلة تاريخ الطبرى (المطبعة الحسينية بالقاهرة)

على حسنى الحروبوطلى : (الدكتور)

— تاريخ العراق في ظل الحكم الأموى (القاهرة ١٩٥٩)

— المختار الثقفى (سلسلة أعلام العرب ، القاهرة ١٩٦٣)

— الإسلام والخلافة (بيروت ١٩٧٠)

حمارة البينى : (٥٦٩ هـ)

— تاريخ اليمن ، تحقيق الدكتور حسن سليمان محمود (القاهرة

١٩٥٧) .

فان فلوتين : (ج .)

— السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بنى أمية ،

ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وزكى ابراهيم (القاهرة

١٩٣٤) .

فلهوذن : (يوليوس)

— الدولة العربية ، ترجمة الدكتور عبد الهادى أنور ريدة (طبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) .

فيليب حتى : (الدكتور)

— تاريخ العرب ، ترجمة مبروك نافع (القاهرة)

الموردى : (+ ٤٥٠ هـ)

— الأحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٨ هـ)

محمد جمال الدين سرور : الدكتور

— النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب (القاهرة ١٩٥٧)

— مصر فى عصر الدولة الفاطمية (القاهرة ، سلسلة ألف كتاب)

محمد بن محمد : اليماني :

— سيرة الحاجب جعفر بن على وخروج المهدي من سلمية ووصوله

إلى سجلماسة (نشرها الأستاذ إيثانوف فى مجلة كلية الآداب

بجامعة القاهرة فى ديسمبر ١٩٣٦) .

المسعودى : (+ ٣٤٦ هـ)

مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة)

الناصرى : (أبو العباس أحمد بن خالد)

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدار البيضاء

سنة ١٩٥٤) .

ابن النديم : (٣٨٣ هـ)

- الفهرست (القاهرة ١٣٤٨ هـ)

ابن نشوان الحميري : (٥٧٣ هـ)

- شرح رسالة الحور العين وتنبيه السامعين (القاهرة ١٩٤٨)

النعمان : (- ٣٦٣ هـ) القاضي النعمان بن محمد

- رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد الناضي (طبعة دار الثقافة ،

بيروت ١٩٧٠)

النوختي : (+ ٢٠٢ هـ)

- فرق الشيعة (استامبول ١٩٣١)

Nicholson (John)

نيكلسون : (جون)

- An Account of the Fatemite Dynasty in Africa

هبة الله الشيرازي : (٤٧٠ هـ)

- سيرة المؤيد في الدين داعي الدعوة ، نشرها الدكتور محمد كامل حسين

(القاهرة ١٩٤٩) .

ياقوت : (+ ٦٢٦ هـ)

- معجم البلدان (القاهرة ١٣٠٩ هـ)

الفهرس

صفحة	
٣	مقدمة
٧	تمهيد
١٣	١ — فجر الحياة
١٦	٢ — الأستاذ والتلميذ في اليمن
٢٤	٣ — الحارثان وصاحب البذر
٣١	٤ — الرحلة التاريخية
٣٧	٥ — في المغرب
٤١	٦ — دار الهجرة والمجتمع الشيعي
٤٦	٧ — الجهاد
٥٢	٨ — مؤسس الدولة الفاطمية
٥٨	٩ — مصرع أبي عبدالله
	١٠ — بين أبي عبدالله الشيعي وأبي مسلم الخراساني
٦٥	(دراسة مقارنة)
٧٣	مصادر البحث

özellikle Ankara
mimarlar odası

97

11

To: www.al-mostafa.com